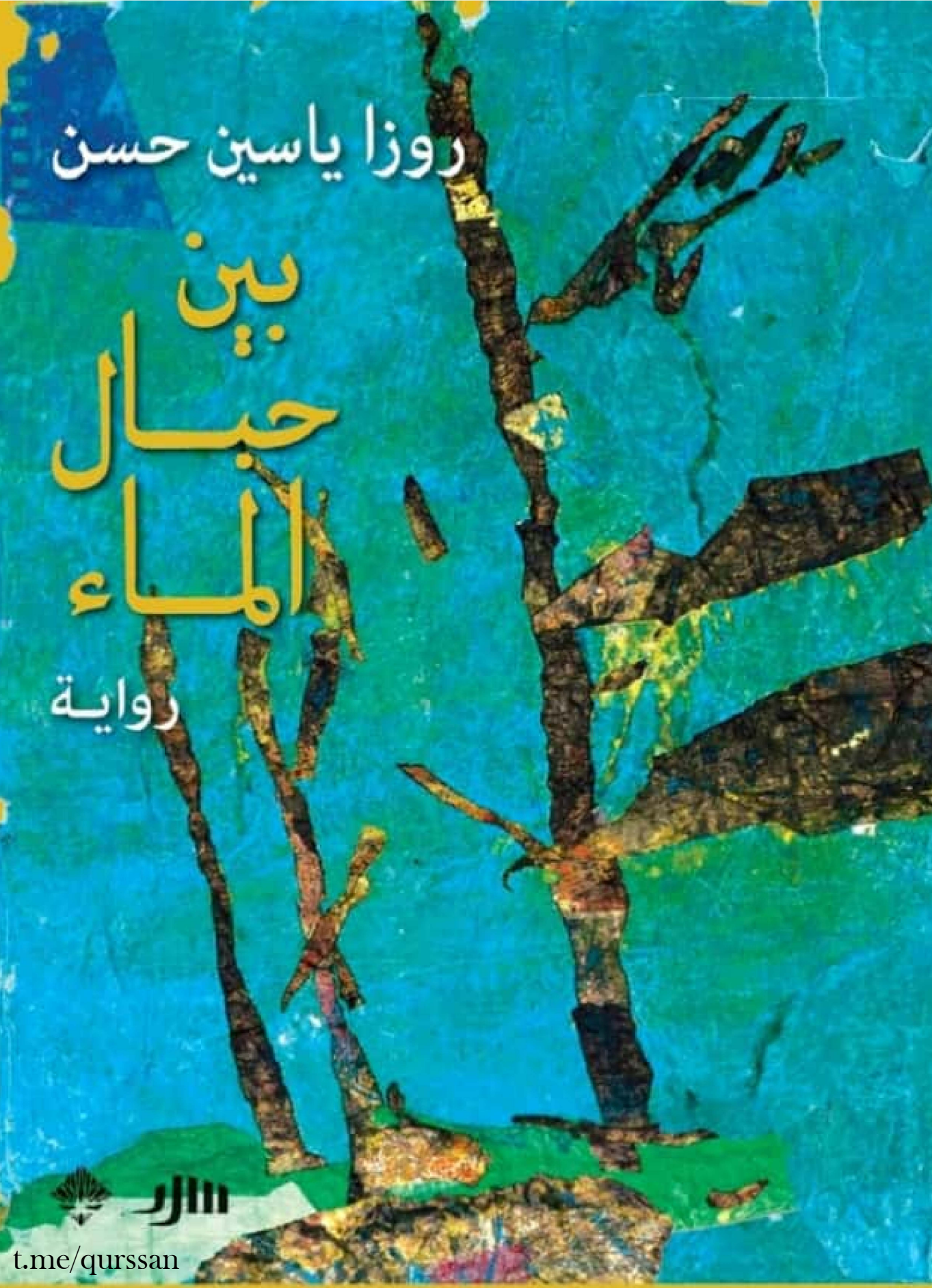

روزا ياسين حسن

بين حبال الماء

رواية

t.me/qurssan

بين حبال الماء

رواية

روزا ياسين حسن

بين حبال الماء - رواية

تأليف: روزا ياسين حسن

تصميم الغلاف: تمام عزّام

ISBN: 7 - 64 - 540 - 9933 - 978

الطبعة الأولى: 2019

سوريا - دمشق - ص ب: 9838
هاتف-فاكس: 6133856 11 963+
جوال: 557195187 971+
البريد الإلكتروني:
addar@mamdouhadwan.net
الموقع الإلكتروني:
addar.mamdouhadwan.net
fb.com/Adwan.Publishing.House
twitter.com/AdwanPH

دار سرد للنشر
جوال: 81756938 961+
البريد الإلكتروني:
info@darsard.net
الموقع الإلكتروني:
www.darsard.net
facebook.com/Sard.Publishing
twitter.com/SardPublishing

جميع الحقوق محفوظة للناشرين دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع ودار سرد للنشر. لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو أو بأي طريقة دون موافقة الناشرَين الخطية.

t.me/qurssan

اهداء

إلى رفيقي القديم المتجدّد: أسامة إسماعيل

الهائم على الحدود بين الواقع والخيال

الضائع أبداً بين وهم الحياة وحقيقة الفن

مـن دونـك مـا كـان لـهذه الروايـة أن تكـون، ففيـها مـن روحـك وتفاصيلك الكثير...

ملاحظة :

الكلام بالخطّ الغامق هو مجرّد مقتطفات من حوارات الأفلام.

t.me/qurssan

بين حبال الماء

امتدّ الممرّ الصفراويّ أمامي كطريق القدر، ضيّقاً، غَبشاً وطويلاً، فيما أسمع صوت مدير فريق العمّال، بعيداً في الخلف، يحثّنا على أن نُغِذّ السير أسرع. صوته حادّ، حياديّ، وبارد، يتناهى إليّ فيما الأضواء العليا في سقف الممرّ تمرّ بسرعة فوقنا، ألمحها تمرّ خاطفة كما تراها عين مستلقٍ على سريرٍ متحرّك ومسرع في «كوريدور» مستشفى!

كان علينا أن ندخل «المول» من المدخل الخلفي، فالمداخل الأمامية لل«مولات» ليست لنا! مداخل المعابد العملاقة لا يدخلها إلا السادة، أصحاب المال، ورجال الدين. ولنا نحن، الهامشيّين، المداخل الخلفية التي لا يعلم أحد بوجودها، لا يراها أحد، ولا يمكن لأحد أن يتخيّل وجودها في الجهة المقابلة المعتمة، تماماً كما لو أنها مخرج الفضلات في جسم إنسان، ذاك الذي لا يريد أحد رؤيته فيما يتغزّل بجمال وجهٍ وجسدٍ كاملٍ أمامه. كل جسدٍ، على أي حال، مهما كانت روعة وجهه وتفاصيل قوامه، لديه مخرج للفضلات، كل جسد. هذه حقيقة اكتشفتها ونحن ندخل ذاك البناء العملاق - المشعّ كشمسٍ جديدة لم تُستخدم بعد، العالي بحيث يمكنه لكْمُ عرش الله في الأعلى - ولكن من الخلف. الخلف لا يعلمه علم اليقين إلا العمّال، مطحنة الرأسمال. الخلف ممرّات الهامش للدخول إلى المتن!

أكبر بناء رأيته في حياتي حتى تلك اللحظة كان «مكتبة الأسد» في دمشق! وربما الأبراج السكنية في بداية «أتوستراد» المزّة! عدا ذلك لم أرَ في حياتي كلّها إلا أبنيةً إنسانية عادية، تتلاءم مع أحجامنا البشرية المحدّدة سلفاً. أمام تلك الأبنية الإنسانية لا تشعر بأنك قزم، ضعيف، وهشّ، كما يحدث معي هنا. حتى التماثيل العملاقة التي تزيّن بعض ساحات مدننا لم تولّد لديّ هذا الشعور المقيم بالصغر. «يوسف العظمة» البرونزي مثلاً، وهو يقف وسط الساحة، التي سُمّيت باسمه، لا يمكنه أن يثير في داخلي إلا شعوراً بتعاطفٍ مؤلم على هذا الدونكيشوت السوري المسكين!

t.me/qurssan

و«صلاح الدين» وهو يمتطي حصانه الضخم، أمام بوابة النصر وسط سور دمشق القديمة، لا يمكنه أن يثير عندي إلا رغبةً حقيقية بمعرفة هذا الرجل، الذي غيّر تاريخاً عاشه، عن قرب!

نظرت إلى الخلف وأنا أمشي في الممرّ، كان العمال الداخلون معي إلى المول يمشون ورائي ككتيبة! جنود بوجوهٍ زرقاء بلاستيكية، أسلحتهم معلّقة على أكتافهم، وأصوات دعساتهم تضجّ في الممرّ الصفراوي الطويل بانتظامٍ مخيف. للحظات، صرت أنا ذاك الجنديّ ذا الحقيبة القماشيّة المتّسخة، أدخل النفق(1) متردّداً خائفاً: نفقٌ معتم قذر، قذارة الحرب التي خرجت منها، تلاحقني أرواح مئةٍ من جنود كتيبتي الذين قُتلوا كلّهم في تلك الحرب. صوت دعساتهم المنتظمة خلفي تصمّني، تلاحقني، وضجيجها يزداد علوّاً، تجعلني أقرب إلى الجنون.. الجنون.. أصرخ بهم: «لا تلحقوني، أرجوكم لا تلحقوني.. أريد أن أعود إلى الحياة، لا تلحقوني». لكنهم لا يكلّون، ولا يريدون تركي.

- اتركوني، عودوا.. وابقوا بأمان!

جنديّ «كوروساوا» كنت، أستعرّ من انتمائي إلى كتيبةٍ من أرواح جنودٍ لا أريدهم، لا أنتمي إليهم، بل أريد أن أنتمي إلى ذلك العالم السحري في نهاية النفق: المول الذي أمامي. لا أريد أن أكون جزءاً من مجموعة أرواح تعسة فقدت حياتها في حربٍ أتعس منها.

في نهاية الممرّ الصفراوي، حين انفتح باب المول أمامنا، سطعت أضواء مبهرة أجبرتني على إغلاق عينيّ. كان ثمّة عالَمٌ سحريٌّ، عالمٌ كامل من الغرابة: عشرات الطوابق بمئات الواجهات الذهبية المتلألئة، مئات الألوان المختلفة، بذخٌ فاحش، ناسٌ متأنّقون يحملون أكياساً، يضحكون، يحتسون القهوة على كراسيّ فخمة... واووو ما هذا؟!

للحظة نسيت كلّ ما أتيت من أجله! أذكر أني أتيت لأجمع المال، هنا في بلاد جمع المال، كي أدرس السينما في كوبا، وكلّ شيء يهون فداءً للسينما، وفي سبيل حلمي ذاك بدراسة السينما في

t.me/qurssan

كوبا!

«رفيق نصر الدين» أقنعني وصديق طفولتي «حازم»، ومعهم جدّي «سهيل المرّ»، بأن الناس هنا في دُبيّ يجمعون المال بالشوالات، جمع المال هنا هو تماماً كأنك تلقّه وهو ملقىً على الشوارع والأرصفة، الأمر يحتاج إلى بعض الانحناءات فقط لجمعه عن الأرض، أكّد «رفيق». ولا يمكنك أن تتخيّل كيف ستجمع ثروةً هائلة في غضون وقتٍ قصير للغاية. تعمل سنةً أو سنتين، ثم تحلّق باتجاه عوالم السينما في القارّة الدافئة، حيث يمكنك أن تعيش السينما في كل لحظة من لحظات حياتك. وما المعهد الكوبيّ السينمائي للفن وصناعته إلا مكان وسط عالم السينما اليومي الذي سيتاح لك عيشه!

«ستكون قريباً من لويس بوينسو وتاريخ أرجنتينه الرسمي(2)، ذاك الفيلم الذي زلزل حياتك»، هذا ما فكّرت فيه و«رفيق نصر الدين» يتكلّم ويتكلّم ويفنجر عينيه في وجوهنا. «ستتنفّس الهواء ذاته الذي يتنفّسه توماس غوتيريز آليا وهو يصوّر فيلمه الساحر ذكريات التخلّف(3).. ستفعل الكثير يا تمّوز».

كان ثمة شيء في سينما أميركا اللاتينية يجعلني أحسّها سينما من الشرق، من بلدي سوريا خاصة! أكاد أشمّ فيها روائح حجارتي المتضوّعة وعبق الدروب الترابية بعد المطر، روائح الطبخ الخلّابة الخارجة إلى الأزقّة من شبابيك البيوت، ولذعة عرق الأجساد السمراء تحت شمس صيف.

كان الجدّ «سهيل المرّ» يهزّ رأسه موافقاً فيما «رفيق نصر الدين» يحكي. يهتزّ مع حركته شارباه الأبيضان الكثّان وذؤابات شعره الطويل التي يدفعها دوماً إلى الخلف. وإذا وافق الجدّ، فعليّ أنا «تمّوز المرّ» أن أوافق. فقد كان «رفيق» في تلك الجلسة، كما هو دوماً، يعرف من أين تؤكل الكتف، فراح يحكي لجدّي عن عوالم السينما المصرية، تلك التي لم يخرج الجدّ «سهيل» من تأثير سحرها يوماً!

ولكن لا تستهن بالسينما المصرية يا تمّوز، في وقتها كانت

t.me/qurssan

السينما القادمة من مصر عالم خيال، بوّابة إلى أشياء لم نعرفها، بل لم نتخيّلها! كبوّابة الجنّ في مغارة قديمة تنفتح لتنقلك إلى الضفة الأخرى من الكون. لا تستهن بما كان يا تموز، بما لا تعرفه، لأن من يستهن بماضيه فلن يعرف قيمة ما هو فيه!

- أنا لا أستهين يا جدّي، ببساطة أنا أقارن سذاجة الأفلام المصرية بخبرة السينما العالمية.

- من لم يرَ فيلم «الحرام»، فيلم «باب الحديد»، «ردّ قلبي» و«الكرنك»! يا الله على «الكرنك»! من لم يعرف نجيب الريحاني! أنور وجدي، فريد شوقي، فاتن حمامة، ميرفت أمين، زبيدة ثروت، نادية لطفي، وسعاد حسني وغيرهم وغيرهم الكثير، والله الله على سعاد حسني، خلّي بالك من زوزو.. زوزووو.. من لم يعرف كل هذه الروائع، فهو لم يعرف حرارة الحياة وألوانها. أيّ سذاجة تتحدّث عنها يا ابني؟! حرارة الروح لا يمكن أن تكون ساذجة!

ثم أردف الجدّ «سهيل» منهياً نقاشاً لم يبدأ:

- ستلحق حلمك يا ابني، والحياة من دون حلم نلحقه لا معنى لها، ارمِ نفسك من جرف محيسن أحسن لك!

...

لكنّي في تلك اللحظة التي كنت فيها، في نهاية النفق الصفراوي المفضي إلى عالم المول، عاملاً جديداً في مدينة الصحراء العملاقة عمره لا يتجاوز الثالثة والعشرين، وانفتح الباب الخلفي على الدواخل السحرية الخلّابة، انفتح أمامي لحظتئذ الباب الذي نقلني إلى العالم الآخر!

كان صوت الكلب القادم مع كتيبة الجنود التي تلاحقني يصمّني، قادماً من ورائي، من أصوات العمّال الذين معي، ولا يريد إلا أن يعيدني إليهم! لكني قرّرت لحظتئذ أني لن أبقى في صفّ العمال هؤلاء، صفّ الهامش، سأكون هناك! ورمقت وجه «رفيق نصر الدين» اللطيف الأبوي، حملك حقيبتي، أنا جندي كوروساوا، تلك

t.me/qurssan

التـي لا يوجـد فيـها إلا علبـة فيلم دائريـة أرجوانيـة هـديّة جـدّي «سـهيل المرّ»، طـردت كتـيبتي التـي تلاحقنـي ولا أنتمـي إليـها، وخرجت من الكادر باتجاه سيناريوهات أخرى سأكتبها من الآن فصاعداً بنفسي.

لا أستطيع تذكّر اللحظة السحرية التي جعلتني أجنّ بالسينما!

السينما ككائن أسطوري موجود بحدّ ذاته، كيـان مستقل معتدّ بنفسه. كان «إيفان» الصغير الأشقر ومهره الأحدب أول بطلين في أول فـيلم أراه فــي حيــاتي(4)، مـا زلـت أذكـر كـل تفصيـلٍ مـن تفاصيله، بل كل كلمةٍ وحركة فيه! لطالما تسمّرت أمام التلفاز في أيّ وقتٍ يُعرض فيه أيٌ فيلم، وأشعر بأن البيت خالٍ إلا من أبطال الفيلم الذين يسرحون في أرجائه وأنا معهم. على كلٍّ لم يكن من أحد يملأ بيتنا الشاسع بغرفه الكثيرة الفارغة إلا ضيوف جدّي وعمّتـي، مـا عـدا ذلـك لـم يكـن ثـمّة أحـد. أمّا أبـي وأمـي فيكاد وجـهاهما يغيبـان شـيئاً فشـيئاً عـن ذاكـرتي، أعرفهما من الصور بالأسود والأبيض التي كانت تملأ رفوف المكتبة وجدران البيت، ومـن أحـاديث جـدي وعمّـتي، فلم أكـن قـد تجاوزت الثامنة مـن عمري حين جذب الوادي القريب من ضيعتنا سيارتهما بشغفٍ إليـه، وهنـاك فـي الـوادي اسـتقرّت السـيارة المتفحّـمة، فيمـا لـم يستطع أحد حتى اليوم العثور على جسديهما!

هذان القبران المتجاوران، بجانب كرم الزيتون القريب، ما هما إلا كتلتان فارغتان تحتضنان بعضاً من ثيابهما، ساعة، نظارة بإطار عظمي أسود، وقطع حليٍ ذهبية صغيرة. أما ذاك المكان الفارغ الذي خلّفاه، فقد حاول جدّي «سهيل» أن يملأه. لهذا السبب فقد هجرت غرفتي في الليل منذ زمن، وصرت أنام إلى جانبه في سـريره الخشـبي العـريض، فيمـا كـانت جـدّتي تنـام في غرفتها الخاصـة حتـى يـوم مماتها! جلابيب جدّي البيضـاء الناعمة وأنا أضمّها وأغفو، تلك التي كانت رائحة التبغ اللاذعة تعشّش فيها مهما أُعيدَ غسلُها، هي وحدها التي تسكنني حتى اللحظة!

مرّةً عرضت القناة الأرضية الأولى، التي لم يكن هناك غيرها في

t.me/qurssan

تلفازنا، فيلماً روسياً قصيراً عن فتى يسكن في ضيعة وعنده بقرة ويعشق جارته الفتيّة. «يا إلهي هناك من يعيش مثلي تماماً!»، صحت مفجوعاً وكنت لحسن الحظ وحدي في البيت. هناك فتى مثلي تماماً، لديه جدّ عجوز بأذنين كبيرتين ويحبّه مثلي، ويملك بقرة كبقرتنا، ويعشق جارته كما أعشق «رشا»، ولكن له شعراً أشقر وعينين زرقاوين، فيما شعري أنا أسود فاحم وعيناي بنّيتان برموش سوداء كثيرة!

أن تعرف أن هناك، في مكان قصيّ من هذا العالم، يبعد عنك آلاف الكيلومترات، شخصاً يعيش مثلك ويفكّر مثلك! أن تعرف ما لا تعرفه، ترى ما لم تحلم برؤيته يوماً، ولم تتخيّل في أقصى حدود خيالك أن يكون موجوداً على سطح هذه البسيطة، أو في عوالم أخرى غير عالمنا: مدنٌ غريبة، بيوت مغايرة، وجوه لا تشبهنا، ألوان، ألبسة، أطعمة، أمزجة، أساليب عيشٍ وحبّ! الدهشة المستمرة التي لا تنضب، هذا ما كانت السينما تبشّرني به.

هل عاش ذلك الفتى ما عشته أنا «تموز» مع «رشا» كذلك؟ لم يُظهر الفيلم شيئاً من هذا! لكن الفضول أيضاً ممتع، أن أُعمل خيالي لأعرف كيف ستكتمل القصة، إن كان لها اكتمال، وأخلق سيناريوهاتٍ بديلة، أو أقلب مسار السرد برمّته. باختصار عشق السينما هو أن تقول كمشاهد شغوف لفيلم: «لا»، حين يقرِّر المُخرج أن يقول: «كاتَ»، ويُنهي المشهد. لا، ليس هنا أوان النهاية أبداً!

حين تجاوزت الثالثة عشرة من عمري قرّر جدي «سهيل» أن يأخذني مرّة في الشهر إلى المدينة القريبة وإلى سينما الكندي بشكل خاص، تلك التي تزدان على طرف حارة حجرية قديمة. هناك في وسط الصالة المعتمة والشاشة الكبيرة، التي تكاد تجتافني إلى قلبها، أمكنني أن أعيش ما تعيشه شخصيات الأفلام، أن أشمّ ما تشمّه، أنتفض من الأصوات التي تخيفها، وأتلمّظ طعم الملح في الدموع، ولولا أن كل من كان في المقاعد التي خلفي يصرخ فيّ أن أجلس، لقضيت كل وقت الأفلام واقفاً.

t.me/qurssan

بعد عدّة أشهر من بدء طقسنا السينمائي، صار جدّي يجلسني في الصف الأخير من المقاعد، كي أقف وأقفز وأتحرّك متضامناً مع الشخصيات على هواي. في نهاية كل يوم من تلك الأيام السحرية، لم أكن أقف وحدي مع جدّي في طابور الواقفين أمام دكان «حلويات سلّورة»! لا، أبداً، فدائماً كان يقف معي أبطال الفيلم، ينتظرون بجانبي ونتناقش معاً حول ما عاشوه. آكل صحن الكنافة بالشعيرية والجبن، ويأكلون غالباً معي، فيما يلبث جدي «سهيل» صامتاً وهو يتلقّط لُقَم الكنافة، وأطراف شاربيه الرماديّين تهتزّ لامعةً من حبّات القطر الملتصقة بها كأنه يستمع إلينا بإنصات! هل كان يسمعنا، وهل كان يراهم حقاً بجانبي؟!

لم أسأله يوماً. لكن شخصيات الأفلام كانوا يصحبونني غالباً إلى البيت، يباتون إلى جانبي في السرير أحياناً، أحادثهم، أناقشهم، نضحك معاً ونحزن معاً. أسمّيهم أصدقائي، فلا يتركونني إلا حين أعود في الشهر التالي مع أبطالٍ جدد. لكن بعضهم لم يتركني، بل بقي عندي على الرغم من قدومي مع أصدقاء جدد، وتراكمت شخصيات الأفلام في قلب الغرفة: الأمير المسحور بقي على رفّ المكتبة الثالث، الحسناء صاحبة الوردة القرمزية لطالما تمدّدت بجانبي كل ليلة، وكانت تبكي في كل مرة أحدّثها فيها عن عشقي. في الزاوية انتظرني صديقي الكلب المخلص رامقاً إيّاي بهيام، أما الساحرة الطيبة فتبقى مصرّة على التحويم في فضاء البيت ممتطيةً مكنستها الخشبية. «روبن هود» يصوّب سهامه في حديقة البيت إلى دريئةٍ مثبّتة على شجرة زيتون، أما طفل الأدغال فيتمشّى على صهوة فهده الأسود، ذاك الذي لا تغادر عيناه الناريّتان ذاكرتي!

مع الزمن احتشد أصدقائي السينمائيون حتى غصّ البيت بهم. عشنا معاً إلى اليوم الذي غادرت البيت فيه لألحق بحلمي، يومذاك اصطفوا بجانب جدّي وعمّتي. كانت الحسناء والساحرة الطيبة وعمّتي يمسحن دموعهنّ بمناديل بيضاء، جدّي يقطّب ما بين حاجبيه تماماً كما يفعل بقية أصدقائي. قالوا لي جميعاً بصوت واحد ملوّحين:

t.me/qurssan

اذهب واجعل الحياة أجمل بأفلامك التي ستصنعها، ولا تنسانا أبداً...

في أحد الصباحات البعيدة تسلّلت كالعادة من شبّاك غرفة «رشا»، حالما سمعت صوت إغلاق باب بيتهم الخارجي إيذاناً بذهاب أبيها وأمها إلى العمل.

خلعت بذّة الفتوة العسكرية على أرض غرفتها وارتميت بجانبها في الفراش. كان جسدانا فتيّين، فتيّين للغاية حتى أنهما لم يبلغا السادسة عشرة من العمر بعد، يكتشفان معاً ما الذي يعنيه الحب، ما الذي يعنيه أن تحبّ بخيالات الصبا وتمارس حبّك بشكل ملموس، وليس كالطلاب الآخرين في الثانوية، أولئك الذين كانوا يحلمون بأن تلتقي أنظارهم بأنظار من يحبّون، أو يتبادلون معهنّ كلمة واحدة. بالنسبة لي كان هذا ضرباً مقزّزاً من الغباء، ومن سفح الحياة بلحظاتها المجيدة في التفاهات السطحية.

على سرير «رشا» اكتشفنا، كحبيبين، مسيرة الحبّ الجسدي. ماذا يعني أن أكون أنا رجلاً وأن تكون هي امرأة، أن نملك أعضاء كأنها مفاتيح الفردوس، فالله حين طرد آدم وحواء من الفردوس ترك معهما المفاتيح، وهذه هي المفاتيح: الأعضاء الجنسية، ولكن فقط للذي يتقن استخدامها بذكاء!

كنا ذينك المراهقين اللذين يكتشفان الحياة والحبّ والجنس على جزيرة منسيّة في البحر الهادي، في كل مرّة كنّا نحتضن فيها كلٌّ منّا الآخر، كنت أشمّ رائحة البحر وأتلمّس الرمل الذي نتدحرج عليه بجنون. لم أكن أرى فيلم البحيرة الزرقاء(5) أو أتخيّله، بل أعيشه في كل ثانية عشناها في ذلك الفراش الضيّق ذي الأغطية الوردية المزيّنة بأزهار حمراء نافرة. كنت أنا «ريتشارد» الأصهب أحتضن حبيبتي «إيميلين»، وأكاد أحسّ بهسيس حبّات الرمل تحتي. لم تكن «رشا» تشبه «إيميلين» الشقراء البتّة، كان لها أنفٌ أقنى ووجهٌ ضيّق، وشعرها فاحم السواد كشلّالٍ من ليل يتهادى بغنج على ظهرها. هذا ما كان يجعلني أخرج من مشهدي السينمائي باتجاه حقيقة حبيبتي، وأعيش إيميلين السمراء

t.me/qurssan

بشعرها الأسود في المرات القليلة من حياتي التي استطعت فيها أن أفصل بين السينما وواقعي. كما أنّنا للأسف لم نكن قادرين على البقاء عراة على الجزيرة، بل كان علينا أن نرتدي بذّات المدرسة ذات اللون الخاكي فوق عرق الحب الذي يُغرق أجسادنا، ونتسلّل فوراً إلى المدرسة.

في الحصة الدرسية لم أكن أستطيع سماع ما تقوله معلّمة الرياضيات! أرى حركة شفاهها المضحكة فحسب. فخيالي لا يكفّ عن استحضار كل شيء: رائحة جسد «رشا»، رطوبة شعرها، صوت تأوّهاتها وهمساتها، وعبق أعضائها الجنسية وأنا أدسّ وجهي فيها.

أدور بلساني على شفتيّ علّ بقيّة باقية من سائلها الحليبي يعود طعمُه في فمي، أدور وأدور عبثاً حتى تصرخ المعلّمة:

- كفى مسخرة يا تموز، ركّز في الدرس أحسن لك!

ويضحك بقيّة الطلاب، فيما تدفن «رشا» وجهها في الكتاب الذي أمامها. أستطيع من الخلف أن ألمح طرف وجنتها المحمرّة خجلاً كوردةٍ جوريّة نديّة.

الجميع كانوا يعرفون أننا عاشقان، الجميع بلا استثناء إلا أهلها! وحده جدّي «سهيل المرّ» أخذني من يدي مرّة، وبدأ يقصّ عليّ في زاوية غرفته الصغيرة حكاياته مع بنات الجيران، خصوصاً ابنة جيرانهم «سميحة». كان في مثل عمري تقريباً حينما لمس نهدها قرب دغلة كثيفة في القسم الشرقي من الضيعة. نهداها كانا كبيرين كدرّاقتين ناضجتين وجسدها بضّ. لا يمكن للجدّ، الذي كان مراهقاً وقتذاك، أن يخطئ ذلك على الرغم من طبقات ثيابها الخشنة السميكة.

- كان لديّ منذ صغري موهبة في معرفة مكمن جمال النساء حتى لو تستّرن بألف ثوب.

وضحك. «تستطيع معرفة ذلك من لمعة عيونهن، وتلك الحركات الصغيرة في ملامحهن التي لا يلتقطها إلا خبير في الجمال»

t.me/qurssan

كجدّك».

قهقه ممسّداً شاربيه الكثّين الأبيضين.

- وأنت باختصار طالع بكل ذرّة من ذرّاتك لجدّك!

وعاد إلى قهقهته.

«لم يكن قد مرّ وقتٌ طويل على عودة «سميحة» إلى البيت، بعد أن غابت أسبوعاً عن القرية، حين التقاها «سهيل» من جديد. البعض قال إنها لحقت شاباً عشقته ثم تركها خائبة مفجوعة، البعض قال إنها ذهبت لتعمل في المدينة أو لتبيع شرفها، فسمعة «سميحة» السيئة كانت تعمّ المنطقة كلها. تلك الفتاة لم تكن تهاب من صوت جسدها ورغباته، تلك التي تحلّق بجناحين لا يمكن لعرف أو عادة أن يقيّداهما.

كان جسد «سميحة» يبدو ناصعاً رغم عتمة الدغلة، وعلى فخذيها علامات زرقاء قاتمة. قالت لي إنها من ضربات والدها البارحة. هو في الحقيقة كان يضربها كل يوم، كنت أستطيع سماع صوت استغاثتها في سكون الليل، وأشعر بأن حزام والدها الجلديّ يضرب جسدي أنا، يسوطه بضرباتٍ متلاحقة، فأحاول كبت صراخي.

- اليوم سيعود إلى ضربي إن عرف بأننا التقينا. ولكن لا يهمّني، ليذهب إلى الجحيم. الدقيقة معك تعادل عمراً بكامله.

قالت وهي تحيط صدري بذراعها وتتكئ برأسها على كتفي. لم أسألها أين كانت طول الأسبوع الذي غابته في المدينة، لم أشعر بأن الأمر مهمّ، أو لم أُرِد أن أخرّب جمال اللحظة بأسئلة مشابهة. وبقينا معاً حتى حلّ الظلام تماماً. لم يخطر ببالي أنها ستكون ليلتنا الأخيرة معاً، لو عرفت لكنت فعلت أشياء أخرى، لكنت قلت لها: تعالي نهرب معاً!

في المساء ضربها والدها، كان يصيح: «يا شرموطة! والله بهدلتيني في الضيعة كلها.. شرموطة!».

t.me/qurssan

أما هي فكانت تصيح: سأهرب من جديد.

كل أهالي القرية كان بمستطاعهم أن يسمعوا أصوات الصراخ القادمة من بيت «سميحة».

- اهربي، موتي.. خلّصيني من عارك.. والله لأندر قربان للشيخ إبراهيم حتى تروحي ولا ترجعي.

في اليوم التالي لم أرَ «سميحة»، ولا في اليوم الذي يليه. راحت الشائعات تتراكم وتتعملق، حتى أني سمعت جارتنا تقول لأمي وهي تشرب كأس الشاي إن «سميحة» افتتحت كازينو للعب القمار في بيروت! بعد أسبوعين طويلين طويلين وصلتني رسالة منها، أرسلتها مع أخوها الصغير، قالت لي إنها هربت لتعيش حرّيّتها. قالت إنها تحبّني ولكن كان عشق الحرية أقوى. فأنا في النهاية مثلهم: لا أعرف كيف أدافع عمّن أحب.. سامحني يا سهيل.

ولم ألمح وجه سميحة بعد ذلك أبداً!».

حين أنهى جدّي حديثه كنت أشعر بأني أفهم تماماً ما كان يعنيه، أحسسته بجلدي وبروحي، وشعرت بقوّة عارمة جعلتني أرغب بأن أقف في ساحة القرية وأصيح بأعلى صوتي: «أنا أحب رشاااااااا!».

لكن في النهاية الكلّ كان يعرف، وما من حاجة إلى كل هذه الحركات الصبيانية. ذلك أن الحب مرض لا يمكن مداراته، ولا تخبئته، أو جعله ببساطة لا مرئياً! رائحته تعبق في المكان، ليست رائحة سائل «تموز» على جسد «رشا»، ولا رائحة سوائلها على وجهي وأعضائي، وإنما رائحة أعمق أعمق، أكثر تأثيراً وفتكاً وتضوّعاً، اسمها: رائحة الرغبة بين الأرواح.

روحان، كل ما فيهما يصرخ بذلك الهيام المحرّم.

لكن معلّم اللغة الإنكليزية قرّر أن ينهي قصّتنا الفريدة تلك بمشهدٍ ختاميّ مفاجئ، بعد سنتين من بدء العلاقة! كان رجلاً ماركسياً يدير حلقات حزبية سرّية في المنطقة، ويحاول زرع الفكر

t.me/qurssan

الماركسي الحرّ في عقول الفتية، كما كان يقول. ولم أفهم حتى اللحظة كيف لرجلٍ يقود حلقات سريّة ألّا يخلو حديثٌ له من ذِكر الموضوع! سرّية؟!

وقد كاد ذلك المعلم السرّي أن يبلغ الخمسين من عمره ولم يقرب امرأة في حياته، هذا ما كانت المنطقة كلّها تعرفه، فالمعلّم يعيش مع أمّه منذ أن توفي والده قبل ثلاثة وعشرين عاماً. البعض كان يقول إنه ما زال ينام معها في السرير ذاته، ولكنّي أظنّها مبالغة. كان شهيراً بأنه ظلّ يرضع منها حتى دخل إلى الصف الأول في المدرسة، فقد كان يهرول إلى البيت أثناء الاستراحة ليصيب بعض رضعات حليبٍ ساخن من ثدي أمه، ثم يعود مهرولاً إلى المدرسة كما جاء!

الشباب كانوا يتهامسون بأن عضوه ولا شك تهتّك من كثرة ممارسة العادة السرّية، خصوصاً حين يلاحظ المرء أصابعه الثخينة المشقّقة المصطبغة بأصفر التبغ، وكفّيه الغليظتين. كنت أشعر بألمٍ حارق في عضوي حالما ألمح يديه وأتخيّل ما الذي من الممكن أن يفعل بهما!

- من الأفضل ألّا يتزوج امرأة قطّ، إذ كيف سيداعب جسدها بهاتين اليدين؟!

نضحك نحن طلاب المعلّم في الاستراحة، وأكبت ضحكتي وأنا أراقبه من باب الكوريدور وهو يجلس في مواجهة جدّي «سهيل» في صالون البيت، يضع ساقاً فوق ساق ويمجّ سيجارته بشراهة. ولم يخطر ببالي البتّة أنه سيُقدِم على ما أقدم عليه!

- الولدان عاشقان يا أستاذ سهيل، لم يبلغا بعد السابعة عشرة من عمرهما! وجود علاقة كهذه في الصفّ الدراسي ستدمّر كل القيم والأخلاق التي يجب أن يتربّى الأولاد عليها. ستدمّر قيم مجتمعنا. ثم ما الذي سيفعله ابنك تموز مع تلك البنت المستورة؟! هل سيتزوجها وهو لم يبلغ بعد السابعة عشرة؟!

للحظة، لم يكن معلّم اللغة الإنكليزية أمامي إلا «أنطونيو

t.me/qurssan

ساليري»، الموسيقار الإيطالي في قصر إمبراطور النمسا، وهو يعدّ الفخّ القاتل لـ«أمادوس موزارت»(6) الذي هو أنا! أكاد أرى شعري الأبيض المستعار الذي يُثقل رأسي الخفيف، أتلمّس ثياب البلاط الحمراء الباذخة التي تلفّ جسدي الضئيل، وأشعر بخراقتي وهبلي وأنا أتنصّت من وراء الباب وأراقب وجه «ساليري» الشيطاني، ذاك الذي يدّعي التعاطف معي، فيما هو يرشح حسداً لي وغيرة منّي ومن حبّي ومن إبداعي. «ساليري» الذي لم يكن بمستطاعه أن يؤلّف موسيقا كموسيقاي، ولا أن يعيش جنوناً كجنوني وحبّاً كحبي. موسيقاي كانت حرّيتي، وحبّي كان «رشا». أراد الأمرين ولم يستطعهما، وها هو ذا الآن يعدّ العدّة لقتلي، لفنائي، لسلبي موهبتي، لسلبي روحي التي يريدها له!

كان ردّ جدّي غريباً على ذاك الشيطان اللطيف الذي يبدو مهتمّاً لأمرنا، محبّاً، عطوفاً. قال جدي إننا أطفال، ويجب أن لا يكون التعامل مع الحالة إلا باعتبارنا أطفالاً، وأن حبّنا عذريّ، وأننا نُضفي حالةً من المشاعر النبيلة على الصفّ وليس العكس. وهل يمكن للحياة أن تكون جميلة من دون طاقة الحبّ المرفرفة حولنا؟!

هل كان جدّي مقتنعاً فعلاً بأن حبّنا حبّ أطفال؟! أم أنها حيلة من حيله الكثيرة؟

لكن تعابير وجه «ساليري» ازدادت صفرةً، وراحت تنضح بغيرةٍ قاتلة. أما تجاعيده فقد ازدادت عمقاً حين أردف جدّي: «وليكن يا أستاذ، لندعهما كعصفورين بريئين ينعمان بلحظات لن ينسياها. لندعهما ولا نوقظ الفضيحة، فالفضيحة كما تعرف لها أنياب ومخالب لا ترحم!».

لكن النهاية لم تكن ورديّة ككلمات جدّي ذاك المساء. «ساليري» الحاقد نجح في تجريدي - أنا «موزارت» - من حياتي. لم أعد أستطيع أن أرى «رشا» بعد ذلك. نافذتها التي كانت مشرّعة على الحب وضعوا لها قضباناً معدنية طولية، بدت لي من بعيد زنزانةً عالية في برج سجنٍ كبير. كما نقلها أهلها من مدرسة

t.me/qurssan

أخرى بعيدة، يأخذها والدها كل صباح إليها ويعود بها بعد الظهر. ظننت وقتذاك أن الحياة انتهت، لم يعد هناك أي مبرّر للعيش. لم أعد أذهب إلى المدرسة، لازمت الفراش واهناً، وقد جُرِّدت من كل طاقة على الحياة في جسدي.

حين حززت عروق يدي في المرة الأولى كان حظّي سيئاً، واستطاع جدّي أن يكسر باب الحمام قبل أن تخرج آخر قطرة دمٍ من جسدي!

في المرة الثانية، ابتلعت كل حبوب المسكّنات التي في البيت، فقد كانت كل مفاتيح أبواب البيت قد اختفت ولم أعد قادراً على إقفال أيّ باب. استيقظت في المستشفى على نشيج عمّتي بقربي.

لم تستطع المسكّنات أن تقتلني!

كنت أتخيّل «أنطونيو ساليري» كل يوم وقد جنّ، ولا بدّ أنه قد بدأ يخطو نحو الجنون الآن وهو يرى قصة حب، كان سيذكرها العالم بالتأكيد لقرون مقبلة، تتدمّر بسببه. كنت أتخيّله تماماً كـ «ساليري» في المصحّة النفسية يندب موت «موزارت»، وشعوره بالذنب القاتل سكّين مثلّمة تقطّع روحه ببطء. ما على أمّه الآن إلا أن تراقب وحيدها الشيطاني يقترب من النهاية. كنت أراه يعترف للدكتور خلال جلسات العلاج بما اقترفت يداه، أرى وجهه وقد ازداد اصفراراً وجنوناً، وعينيه يبتلعهما الفراغ، وأشعر بأن قليلاً من غيظي وكرهي له قد بدأ يبرد! إذ ما من عقاب أشدّ على رجلٍ داهية مثله من أن يفقد كل رأسماله: عقله.

لكن خبر زواجه القريب والمفاجئ جعل كل صوري السينمائية تتلاشى، وجعلني أحاول الانتحار للمرة الثالثة: وقفت على سطح بيتنا وأنا أراقب المدى، وقررت لحظتئذ أن أذهب لرمي نفسي من على جرف محيسن. سيكون ارتطام جسدي بقساوة الماء العاري أرحم من أن أعيش من دون ملمس جسد «رشا»، من دون رائحتها وطعم رضابها. الموت طريقٌ أسهل للنهاية من كل ذلك.

t.me/qurssan

ملأت جيوبي بالحجارة، كانت فكرة عفوية خطرت ببالي في تلك اللحظة، فأنا أسبح كدلفين، وقد يجعلني شوق الحياة أتجه بشكل غريزي إلى الأعلى بعد أن تكون لجّة البحر قد التهمتني. أخاف أن تغلبني قوة الحياة بداخلي، وأنا لا أريد لها أن تغلبني. بعد سنوات عديدة، وحين سأجلس متسمّراً أمام شاشة سينما عملاقة في بلدٍ غـريب، مسـتمعاً إلـى لغـةٍ غريبـة وفـيلمٍ غـريب سـاحر اسـمه: الساعات(7)، ستملأ «فرجينيا وولف» جيوب معطفها بالحجارة، تماماً كما فعلت أنا يوماً، وتُغرق نفسها في نهر (أوز Ouse) بعد أن غدت الحياة مضيعة للوقت، وسجناً رهيباً لن تقوى على إكمال أيامها فيه.

لن أتذكّر إلا لحظتي تلك. هل كان «مايكل كونينغهام» يعرفني؟ هل حلم بي ذات لحظة إبداعية؟ أم أن روح «فرجيينيا وولف» زارتني لحظتئذ من الماضي كي تجعلني، أنا الذي لم أكن قد سمعت بها يوماً، أحمل صليبي وأتجه إلى درب الجلجلة مثلها مالئاً جيوبي بالحجارة؟!

تذكّرت لحظتي تلك على جرف محيسن قبل سنوات طويلة، ولسببٍ ما لم أقدر على الضحك! يقولون إن الرجل يضحك في شبابه على ما اقترفه في مراهقته، ويضحك في كهولته على ما فعله في الشباب، وهكذا.. يقضي أوقات حاضره في الضحك على لحظات ماضيه! مؤسف حقاً أن نضحك على آلامنا يوماً، كأننا نضحك على وجودنا برمّته. إلا أنا، لا يمكنني أن أضحك يوماً على ما كان!

لكن الفرق بين قصتي وقصّة «فرجيينيا وولف» هو أنني في اللحظة التي هممت أن أخوض فيها غمار الماء والقدر، مثقلاً بالحجارة باتجاه خلاصي الأبدي، رأيتها! رأيت «رشا» وهي ترتدي ثوباً أسود طويلاً، وتلفّ رأسها بقماشة بيضاء ناصعة تحت غطاء أسود. عرفتها على الرغم من أزيائها الغريبة، فأنا يمكنني أن أشمّ رائحتها عن بعد أمتار، كنمرٍ عاشق يعرف نكهة أنثاه. بدا وجهها أكثر ضيقاً في حجابها، وكانت «رشا» تغذّ السير رافلةً في ثياب الراهبات! لا، لم تكن «رشا»، كانت راهبة حجرية تشبهها حدّ

t.me/qurssan

التطابق! حاولت أن أتخيّل جسدها البضّ العاري من تحت ذلك الثوب المقيت، ولأول مرة لم أستطع فعل ذلك.

رمقتني لثوانٍ وأنا أقف أعلى الجرف، ثم أطرقت وذهبت. حتى اليوم لا يمكنني أن أميّز ما إن كنت قد رأيتها حقاً أم لا! هل كانت هي أم كانت راهبة أخرى تشبهها مرّت بقربي! لا أعرف على وجه التحديد ما الذي عشته في اللحظة تلك، فقد انتقل أهل «رشا» من الحارة كلّها في الأسبوع ذاته. لكن ما أعرفه أني في تلك اللحظة بالذات أفرغت جيوبي من الحجارة، رميتها وحدها في الماء وعدت أدراجي!

ما كان أشدّ ألماً من الفراق هو حالة الهياج الجنسي الذي تلبّستني بعد الفراق! حالة من الشبق النهم الغريب غير القابل للإشباع، كأن لاوعيي الجنسي يحاول أن يثبت لنفسه عكس ما أشعر، ووحدي من دفعت ثمن ذلك شهوراً من العادة السرّية غير المنقطعة، مترافقة بخيالاتٍ مهووسة كانت جديدة تماماً على تخييلي! حتى أني نزلت في صباحٍ ما، كنت فيه في أضعف حالاتي، إلى قنّ دجاج جيراننا، وقد فكّرت أن أعاشر دجاجة علّ الأمر يبرّد قليلاً من هياجي.

قال لي يوماً آذن مدرستنا القديم - ذاك الذي طردوه من عمله وقت لقطوه يستمني أثناء الدوام في غرفة المعلّمين الفارغة، على صورة إحدى معلّمات الرياضة الجديدات - إن معاشرة الدجاجة كمعاشرة المرأة، لديهما أعضاء متشابهة في الحرارة والحجم! كانت تلك الفكرة ستجلب نهايتي، إذ دبّ الجنون في الدجاجات حالما دخلت القن متسلّلاً، وراحت تصيح بكلّ ما أوتيت من قوة. الأمر الذي جعل أهل البيت يبدؤون بالصراخ كذلك وهم يتّجهون إلينا: «حرامي بالقنّ.. حرامي بالقنّ!».

لم أعرف كيف نجحت في الهرب دون أن يروني، أنقذت نفسي من فضيحة أخرى في اللحظة الأخيرة. وظلّ أولئك الجيران أياماً يتحدثون عن ذاك اللص الذي هرب منهم دون أن يعرفوا هويته، ولشهورٍ طويلة بقي جارنا يصيح في صالون بيتنا: «أخ بس لو

t.me/qurssan

لقطته، كنت عملته طعام للدجاج...»، فحدثٌ كهذا في قريتنا المملّة هو بمثابة تسونامي تجديديّ لركودها المزمن.

في ذلك الوقت أخذت عهداً على نفسي ألا أحبّ ثانية، ليس لشيء إلا كي لا أعود إلى ذلك الإحساس المفجع بالفراغ بعد امتلاء، ذلك الفراغ الذي يجعلك تعمل كل شيء وأيّ شيء لتملأ مكانه من جديد!

استيقظت ذلك الصباح على صوت المنبّه، فلم يكن ثمة نوافذ في غرفتي الصغيرة - كحمّام قديم مهترئ - ترسل الشمس منها تحيات الصباح. لا يمكن للمرء أن يتخيّل غرفة كهذه هنا، في مدينة المال والأعمال والإبهار العمراني «دبيّ». لكن المدن كالبشر، لها دوماً أسرار لا يعرف كنهها أحد!

منذ أن اشتريت كومبيوتري هذا، الذي ما زالت شاشته الزرقاء ساطعة أمامي، لم أعد أشعر بأن غرفتي دون نوافذ. لدي الآن نافذة «Windows»، أرحب من أيّ نافذة في قصر سلطان، وأكثر تلوّناً وغنىً. حين أنتهي من عملي كل يوم، أدخل هذه الغرفة وأشرّع نافذتي الزرقاء على العالم.

كنت قد استدنت مبلغ 3000 درهم من «رفيق نصر الدين» الذي كان يشعر بشيءٍ من الذنب تجاهنا، نحن اللذين أتيا منذ سنتين إلى هنا كي نجمع ما يساعدنا على تحقيق أحلامنا: أنا لأدرس السينما في كوبا، و«حازم» كي يجمع ثروة يعود بها إلى سوريا ليفتتح مشروعاً ما هناك ويقبر فقر أهله الأزليّ.

على مدى سنتين من العمل هنا لم أستطع أن أوفّر درهماً واحداً من راتبي، فـ 1300 درهم شهرياً لم تكن تكفيني كفاف العيش، فكيف لي أن أوفّر منها؟! «حازم» كان يردّد على مسامعي كل يوم وهو يحشو سندويشات الماكدونالدز باللحم:

- سيأتي يوم وأجلب لأمّي غسّالة أوتوماتيكية وجلّاية وبرّاداً 24 قدم. سأشتري لها بيتاً صغيراً وقطعة أرض لتزرعها. أعرف أن هذا اليوم سيأتي يا صديقي!

t.me/qurssan

ويمسح يديه بمريلة كان لونها أبيض في ما مضى. كنت أموت من الضحك. ينطق جملته هذه كما نطق القسّ الفرنسيسكاني «ويليام فون باسكرفيل» جملته الشهيرة، في ضباب فجرٍ شتويّ في ديرٍ بعيد شمال إيطاليا أوائل القرن الرابع عشر: **وهل تعرف مكاناً ثابتاً يعتبره الله بيتاً له؟ ! (8)**

عيناه تحملان الإيمان ذاته الذي كان في عينيّ «شون كونري»، لكنها لا تحمل ببساطة أيّ وسامة مشابهة لوسامة كونري! ذاك الكائن الشاحب المشوب بالبياض وهو يلتحف معطفه الطويل ويغيب في العتمة.

في الحقيقة هذا المطعم الذي أعمل فيه يشبه إلى حدّ بعيد ذاك الدير العتيق في أبينين: نظرات الريبة والشكّ، الكره والشهوة، تخرج من عيون العمّال حولي، كما كان يمكن للمرء أن يشعرها بجلده وروحه وهي تطلّ من عيون رهبان الدير الذي تحكمه الطائفة البنديكتية. هنا أيضاً يتعاملون مع الضحك باعتباره عملاً شيطانياً يشوّه الوجوه، كما كان الرهبان يتعاملون مع الضحك هناك في بيت الله قبل سبعمئة عام. الأمر الذي يجعل المراقب يرمقنا بنظرة غاضبة مليئة بالحقد إذا رآنا نفترّ ولو عن ابتسامة صغيرة، وذلك قبل أن يستعمل لسانه مهمتراً بشتائم مضمرة. أراه الكاهن العجوز «يورغ دي بورغوس» ذا العينين الزجاجيتين وهو يهدر:

- **الضحك يقتل الخوف ، ومن دون الخوف لن يكون هناك إيمان.**

له الوجه الكريه الكاره ذاته.

ضحكُ العمال الصغار، الهامشيين مثلنا، في عالم المال الجبّار، يجعلنا غير قابلين للسيطرة! لأنه يقتل رهبته أمامنا، يقتل خوفنا من أسياده، وهذا ما كان من المستحيل القبول به، لذلك فقد كان الضحك محرّماً هنا، تماماً كما هو الحب محرّم. لكن أين أنتم من «اسم الوردة» يا تافهون؟! وكيف ستستخلصون من الوردة اسمها الأبدي، كلمتها النقية، وأنتم غارقون في مكانٍ تموت فيه كل ورود العالم؟!

t.me/qurssan

يعود صديقي «حازم» ليهمس من جديد وهو يطرق في عمله: أعرف أن هذا اليوم سيأتي يا صديقي!

كنت أقول له في قلبي: «كس أمك أنت وأحلامك التافهة!».

لكنّه كان يسمعني ويداري ابتسامة.

يوماً بعد يوم صار حلمي، بأن أنتمي إلى عالم المول السحري، ذاك الذي أعمل فيه يومياً، يبتعد، وكذا حلمي بدراسة السينما في كوبا! يوماً إثر يوم يزداد التصاقي الإجباري بعالم العمال، المتّسخ الملوّث بالمعاناة ورائحة العرق الواخزة. لم أعد قادراً على تحمّل روائح شرائح اللحم والدجاج والخبز الصغير المقرف، حين أشمّ رائحة الصوص الأرجواني مع قطع المخلّل تنقلب معدتي، وأكاد أستفرغ كل ما في جوفي. لذلك صرت أضع الكمّامة طول الوقت بحجّة أني أحمل كثيراً من فيروسات الأنفلونزا!

صرت أحاول أن أستحضر، على مدى وقت العمل، كلّ الأفلام التي شاهدتها يوماً، أن أتخيّل مثلاً كيف صوّر «إنغمار بيرغمان» فيلمه «الصمت»، هو القادم من رحم طفولة متزمّتة ضيّقة لأبٍ كان قِسّاً بروتستنتياً لم ينهوس يوماً إلا بتطهّره المسيحي. إذاً، من الممكن أن يخرج من رحم العتمة شيء في غاية الجمال!

الصمت يعمّ حولي، أرى الأفواه تتحرك دون صوت، الأجساد تمشي وتنتقل من مكان إلى آخر دون صوت، أرى الزبائن يطلبون ما يريدون ويأخذونه بصمت لا يمكن أن يكون إلا للمقابر البعيدة! أدور، أنا ذاك الصبي «جون»، بشورتي الحائل وشعري الأشقر، بين ردهات فندقٍ غريب شبه فارغ إلا من أقزام على هيئة مهرّجين ومديرٍ عجوز يتكلّم من بين أسنانه(9). أراقب أمّي من فتحة الباب وهي تعاشر رجلاً جلبته من المقهى المجاور. ينتابني الشعور ذاته الذي أحسّه «جون»، حرقةٌ في المعدة وخفقان غريب في القلب، وأنا ألفّ سندويشات الهامبرغر في أوراقٍ ملونة، وأرتّبها في الواجهة الزجاجية أمام الزبائن الذين يسيل لعابهم شهوةً. ترمقني الوجوه الصامتة وتحيطني خيالات بشر، أعيش

t.me/qurssan

في عالم آخر، أخرج من هذا القرف والسطحية حولي، أستحضر وأتخيّل وأعيد، وأهمس دوماً لنفسي ما قاله «إنغمار بيرغمان»:

أنا لست بحاجة إلى إله، ولست بحاجة إلى الملائكة أو الشياطين. أنا ملاك نفسي وشيطانها!

في يومٍ ما سأقوم بصنع فيلم عن غرفة كراكيب جدّي:

ستكون غرفة كراكيب جدّي كأنها كائن بشري، أو لنقُل امرأة. غرفة تشبه امرأةً ما كثيراً، تشبه تراكم التفاصيل الصغيرة في حياتها!

جدران الغرفة هي ذاكرة تلك المرأة:

مليئة بملصقاتٍ لأفلامٍ عربية قديمة، بهتت ألوانها وتحوّلت إلى شحوبٍ متحلّل منهك: ملصق «باب الحديد» تبدو فيه عينا «هند رستم» النجلاوان كأنهما عينا مومياء مثقلة بالزمن! أما «فريد شوقي» فقد ذهب جزءٌ من يده الزرقاء وهو يجرّ عربته الخشبية في فيلم: الفتوة! في حين أن «نور الشريف»، الذي كان يحتضن «بوسي» على ملصق «حبيبي دائماً»، قد افترق عنها بضربة ما شقّت الورق قسمين، وجعلت «بوسي» وحدها تتأرجح معلّقة بسنتيمرات قليلة إلى الحائط! يمكن للمرء أن يتخيّل كمّ الصور المتحركة والثابتة التي من الممكن أن تعجّ حيطان الذاكرة بها!

الأرضية هي دواخل تلك المرأة:

كدواخلنا جميعاً، الأمزجة والمشاعر والأفكار والتهيّؤات، كل ذلك مرتسمٌ على تلك الأرض التي من الممكن للناظر أن يرى كل الألوان عليها! فبلاط الغرفة كان في ما مضى أبيض اللون، يمكن للمرء أن يلحظ بعض البلاطات القليلة التي بقيت فعلاً بيضاء كما كانت، ما عدا ذلك مختلف، فمعظم البلاطات التي كانت بيضاء صارت إما رمادية أو مصفرّة، مليئة بالبقع سوداء حمراء صفراء، أو متكسّرة أو مشقّقة. ثمة كثيرٌ من البلاطات التي تلِفَت، فاستُعيض عنها ببلاطات بألوان وقوامات مختلفة، مجموعة من بلاطات قرميدية، أو مجموعة أخرى بتموّجات ملوّنة، مساحة

t.me/qurssan

ببلاطات مقسّمة إلى مربعات صغيرة، ومساحة أخرى تنفر منها بحصات ناعمة مدوّرة كبلاط أرصفة الشوارع. دواخل ملوّنة، مختلفة، متنوّعة، كانت أرضية غرفة جدّي.

قطع الأثاث القديم، الكراكيب عديمة الفائدة، التُحَف والأنتيكات، العلب والسطول البلاستيكية والزجاجات، والكثير الكثير من الثياب القديمة والمهترئة كذلك كانت تشغل الغرفة، تبدو في أول المساء كقامات بشر، أطفال وعجائز وشباب، ويمكن للمرء، إن أصغى، أن يسمع وشوشاتهم وهم يتهامسون.

حين سأرى في ما بعد فيلم «الجميلة والوحش» الذي أنتجته «شركة ديزني»(10)، والذي جلبه جدّي لي في علبة فيديو مستطيلة وأقحمه في جهاز الفيديو القديم، لن أرى إلا غرفة كراكيب جدّي. أراقب أثاث قصر الوحش وهو يتحرك ويغنّي ويرقص، حيث الشمعدان ما هو إلا «لوميير» كبير الخدم، بلكنته الفرنسية الجذّابة، «وكوجوورث» مدبّر القصر ما هو إلا تلك الساعة البدينة التي تتقافز على درجات السلّم الفخم، أما الفنجان الصغير المكسور من جنبه فهو الطفل الصغير «تشيب» المفعم بالمرح والطاقة! كل قطع الأثاث في ذلك الفيلم كانوا بشراً، والروح تدبّ فيهم كالسحر، كان ذلك الفيلم كالسحر حقاً!

أما سقف غرفة كراكيب جدي فهو الأيام المقبلة في حياة تلك المرأة، المستقبل أو ما تتطلّع إليه:

هو سقفٌ مطليّ بالكلس الأبيض. ثمة مساحات قشّرت الرطوبة الشديدة فيها الدهان، وجعلته يتناثر إلى الأسفل تاركاً في السقف رسومات مبهمة غامضة! ينعكس ضوء النافذة الوحيدة في الغرفة عليه، فتتلامح انعكاسات لونية للضوء بحسب أوقات النهار: في الفجر حين ينسلّ شعاع الشمس الأرجواني من النافذة وينعكس على السقف، يبدو ورديّاً موشّى بمساحات الرمادي. عند الظهر سيبدو أبيض مصفرّاً موشّحاً ببقع أقلّ ابيضاضاً. عند الغروب سيكون السقف رمادياً ببقع سوداء مبعثرة. أما في الليل فسيغدو كل شيء في الغرفة معتماً، ذلك أن النوّاسة الصغيرة

t.me/qurssan

المتدلّية من السقف عاطلة منذ زمن طويل، يستعيض عنها جدي بضوءٍ شحيح معلّق بمسمار معقوف إلى جانب الباب، وهذا الضوء قد يفعل أيّ شيء إلا إنارة المكان، بل إنه يعمي بصر الداخل فلا يمكنه أن يلتقط من المكان شيئاً، اللهم إلا رائحة عطنة تتصاعد من كل ما يتراكم في الغرفة في بعض الأحيان، وفي أحيان أخرى تهبّ رائحة عطورٍ خفيفة من بعض قطع الثياب المتراكمة، وفي أوقات كثيرة يمكن للمرء أن يتنسّم عطر صنوبر آتياً من الشجرة القديمة التي تتكئ على الجدار في الزاوية اليمنى.

أحياناً أعتقد بأن ما كنت أشمّه حين أدخل الغرفة كان يعكس مزاجي في ذلك الوقت، كما كانت مشاعري كلّها تجاه تلك الغرفة تتغيّر مع تغيّر مزاجي. لهذا قلت في بداية الفيلم إن الغرفة هي دواخل امرأة، فالأمر يتعلّق بالمنطق الذي نظم وينظم علاقاتي مع النساء، تلك التي تتحوّر وتتغيّر على الدوام، بحسب المزاج.

لكن غرفة كراكيب جدي تلك، وعلى الرغم من كل شيء، كانت ملجئي الوحيد حين أردت أن أكون وحيداً، حزيناً كنت أم فرحاً، حالماً أم محبطاً، مثاراً أم ملولاً، ملجئي الخاص والوحيد ومكمن سرّي!

كان وضعي في العمل في مطعم «الماكدونالد» في دبيّ يزداد سوءاً! تتراكم أخطائي في جمع الطعام وفرزه، أضعت مفاتيحي أكثر من مرّة. كان عليّ أن أعدّ السندويشات وبقية مكونات الوجبات، لكني لم أكن أعدّ الطعام أو أتابع عمل العمال، إنما أراقب الناس، المارّة، المشترين، أراقب كل شيء من حولي إلا الطعام! وأراقب «سكارليت» كذلك، تلك الموظفة الصينية الصغيرة التي كان كل شيء فيها ضيّقاً صغيراً إلا روحها، فقد كانت أوسع من محيط! عيناها ضيّقتان كأنهما تحاولان القبض على الأشعة الخارجة منهما، فلا تتبدّد في حياة لا تقدّر روعتها. فرجها أضيق من عينيها حتى أنني ظللت طوال شهور علاقتنا السبعة أعاني كلّما أردت أن ألجها، فقد كانت تتلوّى ألماً، كأني أطعنها بسكين حادة في وسطها! أعترف أن ذاك الجسد الغريب، لامرأة آسيوية

t.me/qurssan

غريبة، أثار فضولي النهم أكثر مما أثار شهوتي. كانت الجنسيات المتعدّدة التي لاقيتها هنا تذهلني. هل من الممكن أن يتخيّل المرء كيف لشابٍّ مثلي، لم يخرج يوماً من بلده المتوسطي، أن تندلق أمامه كل هذه الأعراق والألوان والجنسيات والنغمات المتباينة فجأة؟! تعرّفت هنا خلال شهور كيف تلتمع حبّات العرق على الجلد المشدود للأجساد السوداء! ما هي بالضبط لذعة رائحة الهنود والباكستانيين، ومزيج البهارات الذي تلتصق رائحته بثيابهم كما تلتصق بأمكنتهم! وكيف يمكن لنساءٍ صغيرات من آسيا، صفراوات ودون أثداء، أن يكنّ نساءً بكامل غوايتهنّ؟!

هنا أضحى للجمال تعاريف أخرى عندي، للرائحة تراكيب أخرى وحساسيات لم آلفها من قبل، للألوان انعكاساتٌ وتدرّجات مغايرة لتلك التي اعتاد نظري عليها، وللحياة كلّها وجوهٌ متعدّدة وغريبة للغاية!

- لكن سكارليت اسم أميركي؟!

سألتها أول مرة عرّفني الشيف فيها إلى زميلتي الجديدة العاملة في مطعم الماكدونالدز.

- نعم، أميركي، سمّيت نفسي سكارليت كبطلة فيلم «ذهب مع الريح»(11): سكارليت أوهارا!

وضحكت ضحكة حادة رنّانة وهي تضع يدها على فمها، طفلة ساحرة تبلغ الثلاثين من العمر.

وقعت في غرامها لحظتئذ وتغيّرت كل أيامي في المطعم. لم أسألها عن اسمها الحقيقي البتّة، كان طيف «فيفيان لي/ سكارليت أوهارا» كافياً ليجعل من تلك الصينية الصغيرة، التي يمكنني حملها بيدٍ واحدة، أشهى امرأة في العالم! كما أن شعوري بأني أتحوّل فجأة إلى «كلارك غيبل/ ريت بتلر»، وأنا أقبّل شفاهها الرقيقة الطرية، أغراني لخوض التجربة يوماً بعد يوم في سريرها ذي الملاءات المصنوعة من الساتان المنزلق تحت أجسادنا. لم أكن أتخيّل قبلاً كم هو شعور ممتع ملمس الساتان المتحرك

t.me/qurssan

كالزئبق تحت جسدي العاري، الناعم كريشة عصفور صغير، والبارد قليلاً إلى الدرجة التي توفّز نهايات جلدي لمتعٍ أكبر!

في ذلك الوقت لم يكن بإمكاني، براتبي الضئيل، أن أذهب إلى البارات أو أصاحب بنات الليل، الأمر يتطلّب كثيراً من المال. ولشهورٍ طويلة في هذا البلد الصحراوي، بين روائح عمال «الماكدونالدز» وغرفتي العفنة الخالية من النوافذ، لم ألمس جسد امرأة إلا في خيالاتي. كنت أعود من العمل كل يوم وأضع CD لفيلمٍ ما في سواقة الكومبيوتر، سيديّات الأفلام كانت تتراكم في غرفتي، الشيء الوحيد الذي لم أكن أستطيع الكفّ عن شرائه: الأفلام. حينذاك أبدأ في عيش عالمي الحقيقي: عالم السينما. أظل أشاهد فيلماً وراء فيلم حتى أغفو وأنا في مشهدٍ ما من فيلم ما لم أنته من رؤيته، أي حين يغلب النوم شهوتي.

بالنسبة لرجلٍ عاشق للسينما مثلي، كانت رؤية الأفلام على شاشة كومبيوتر أبشع من خيانة حبيب يعيش في مسامات جلدك ويتنفس روحك ذاتها! أبشع... وذاك الإحساس الذي لا يمكن للكلمات وصفه، لحظة القبض على روح السينما والولوج إلى عمق الصالة المعتمة، ينتفي هنا في هذه الغرفة القزمة. كرسي صالة السينما الوثير، ذاك الذي تغوص فيه كمُسَرنَم، ومنه تطلق عيني روحك لسيل الصور والمشاهد التي تأخذك من رحم العتمة إلى نور الحياة، كالولادة، كالولوج في الحياة التي تقتحمك مسرعة مبهرة وطاغية من شاشة عملاقة أمامك. ثمة من قال شيئاً مشابهاً لا أذكر من هو! لكن قدرة صالة السينما أن تفصلك عن العالم الخارجي، أن تجبرك على العيش بين جدرانها المعتمة في دقائق حياة الفيلم وشخوصه فحسب، أن تنسى من أنت، ومن أين جئت، وما الذي يجري في الخارج، وتتماهى مع الفيلم فحسب، أشياء لا يمكن لأيٍّ كان أن يفعلها، إنها تعويذات سحرية لا تملكها إلا السينما!

مع «سكارليت أوهارا الصينية» صرت أقسّم وقت ما بعد العمل بين أفلامي على الشاشة، وفيلمي الذي أعيشه بشغف في الواقع معها. لم تكن لحيتي الخفيفة إلا وسيلةً أخرى للمتعة، خصوصاً

t.me/qurssan

حين كانت تصرخ فيّ بأن شعيرات لحيتي تدغدغ جسدها كما يدغدغ عاشق في كتاب التاو «طريق الحب» جسد عشيقته بريشة نعامة! لأول مرة أختبر مشاهد جديدة عن أجساد تُدهن بزيتٍ له مرّةٌ لذعة النعناع، ومرّة رقّة بتلات الورود، وأرى جسدينا الملتمعين تحت أضواء الشموع التي تملأ الغرفة وتبثّ أيضاً روائح ليلك وقرفة وفانيليا ورمّان. الروائح تجعلنا نقترب من حالة الوجد، كأننا معلّقان بين الأرض والسماء. وانزلاق تفاصيل الجسدين تجعل المتعة أقرب ما تكون إلى من أوشك على الموت، ولكنه لم يسقط بعد في هاويته!

مع سكارليت صنعت فيلمي الخاص، هناك في هضبة التيبت الصينية، حيث الحياة كلّها أبخرة وأدخنة وروائح وزيوت ورز أبيض، دون نكهة، نأكله على الفطور والغداء والعشاء، ومتعٍ يومية غريبة تجعلني مؤلّف الفيلم وبطله ومخرجه ومنتجه في آن!

في ذلك الصباح استيقظت وأنا دائخ، لا أعرف كم من الوقت نمت، ساعة، ساعتين، وربما أكثر! آلام رأسي تمسكني بقسوة. نظرت حولي، كانت نهاية فيلم (UTurn)(12) ما زالت على شاشة الكومبيوتر. كنت نسراً يطوف في حرقة الشمس على الحدود الأميركية المكسيكية، أراقب «بوبي كوبر» الذي ينتظر الموت القادم في سيارته، في لحظة حللت في جسده، الأمر الذي جعلني أستيقظ في اللحظة الأخيرة قبل أن أموت في سيارتي الخربة على الحدود المتلظّية بالحرّ! وجهي يغطّيه الدم، ثيابي يغطيها الدم، وروحي مثقلة بثلاث جثث مدمّاة مرمية من حولي، وأكاد أدفع حياتي ثمناً لانعطافي في طريق طويل خاطئ، خاطئ كقدرٍ لعين!

كان عليّ في تلك اللحظة أن أعود من طريقي الخاطئ، أن أترك كل شيء تحت تلك الشمس الحارقة وأعود إلى حيث بدأت، إلى حيث كنت «بوبي كوبر» الحقيقي الذي يعيش حياته برضاً. لم أكن في مكاني الصحيح، أنا لا أنتمي إلى هذا العالم الذي أنا فيه، أنا لا أنتمي إلى عالم عمال ماكدونالدز، ليس هذا ما حلمت به

t.me/qurssan

يوماً! في اللحظة تلك، وقبل أن تخرج آخر زفرة من روحي على الحدود المكسيكية الصحراوية قرّرت: سأترك العمل اليوم.

في متجر الماكدونالدز لم أرَ سكارليت!

بحثت عنها، فقد كانت أول شخص أريد أن أخبره، ولم أعثر عليها! «حازم» لم يرها، أما «رفيق نصر الدين» فقال لي إنها تركت العمل البارحة ليلاً، وسافرت اليوم صباحاً بشكل مفاجئ عائدة إلى الصين.

- إلى الصين؟!

كان هذا أغرب خبر سمعته في حياتي. ولكن لماذا؟!

- ربما لأنها حامل.

- حامل؟!

خبران صاعقان وقعا على رأسي في اللحظة ذاتها. أن تتركني «سكارليت» دون ولا كلمة، وأن تكون حاملاً؟! هل تكون حاملاً مني؟ أم أن لديها علاقة أخرى؟

- أنت تعرف أن قوانين العمل في الإمارات المتحدة صارمة جداً بهذا الخصوص.

أردف «رفيق» قبل أن يتركني إلى عمله.

هل لاحظ شيئاً؟ هل بدا شيء ما فاضح على وجهي؟

لم أفكّر في الأمر كثيراً، فقد كانت علاقتنا مفتوحة، لم نتعاهد على شيء، ولم يأمل أحدنا من الآخر شيئاً، كنّا غريبين في بلد غريب، وسريرنا الصغير في غرفتها الصغيرة هو الواحة الوحيدة وسط الغربة تلك، وربما كان الطفل ليس طفلي. ولكن ماذا لو كان طفلي؟!

- بماذا كنت تريدني؟

سألني «رفيق» فجأة، فأيقظني من أسئلتي المتلاحقة. حينئذٍ

t.me/qurssan

أخبرته برغبتي في ترك العمل.

- لكن كيف ستعيش إذا تركت العمل؟!

صاح بفزعٍ واستنكار.

- لا يهمّني الأمر، سيّان، سأعيش على صدقات الأصدقاء، لن أعيش لحظة واحدة في مطحنة الحياة هذه، أنا لا أنتمي إلى هنا.

- ستبقى في غرفتك الصغيرة ريثما نجد لك عملاً آخر.

قال «رفيق» وهو يزفر بأسى، لكنه لدهشتي لم يناقشني. شعرت بتعاطف كبير في عينيه اللتين حاول مداراتهما، وتملّكني لحظتئذٍ امتنانٌ غريب وعارم تجاهه!

في الليلة تلك حلمت بجدّي سهيل، كان «زوربا اليوناني»(13) أمامي يرقص على شاطئ بحر مشعّ وذهبيّ، سعيداً، يضحك وينادني أنا «باسيل»، الغرّ الذي لم يعرف ماذا يعني أن يرقص «زوربا» أمامه على أنغام موسيقاه، لأرقص معه على موسيقاه الأثيرة. كان جدّي يشبه «أنتوني كوين» بالفعل، يشبهه كثيراً، ولا أعرف لمَ لم ألاحظ قبلاً هذا الشبه الكبير بينهما!

حين استيقظت صباحاً كانت رائحة البحر تسكن في أنفي، وما زال رمل البحر يدغدغ باطن قدمي. سمعت جدّي يضحك، وما زالت نغمات موسيقا زوربا تتهادى في أذني.

حينئذٍ قرّرت أن أسمّي جدّي: «سهيل زوربا».

حين أتيت إلى هنا لم أحمل الكثير من الأغراض معي، بضع قطع ملابس في حقيبة ظهرٍ جلدية سوداء اللون، وعلبة فيلمٍ أسطوانية بلاستيكية أرجوانية اللون كانت هدية جدّي «سهيل زوربا».

تلك العلبة البلاستيكية دفع بها إليه أحد سكّان البناية التي كان جدّي يعمل بوّاباً لها في شارع الحمرا في بيروت قائلاً له:

«لن أترك هذا الفيلم يذهب مع بقية أفلامي وكتبي في حريق ربما

t.me/qurssan

يلتهم بيتي في أي لحظة.. أبقِه معك.

أخذه جدي مقلّباً إياه، فقد كانت المرة الأولى التي يرى فيها فيلماً حقيقياً ملفوفاً داخل أسطوانة بلاستيكية كبيرة. على السطح الصقيل كُتب: «Animal Farm»، وجدّي الذي كان يستطيع أن يقرأ بعض حروف الإنكليزية تهجّى العنوان، وقال لي حين أهداه لي قبل أن أسافر:

- هذا فيلم عن الحيوانات يا تمّوز، أبقِه معك هدية مني كي تتذكر حلمك في صنع الأفلام دائماً.

لم يكن جدّي يعرف أن هذا الفيلم، المأخوذ عن رواية «جورج أورويل» العظيمة، غيّر تاريخ السينما كما غيّر حيوات كثيرين، ومنها حياتي، وحفرت كلماته ومشاهده عميقاً في رأسي.

أعطى الرجل البيروتي، الذي ترك بيته بما فيه، مفتاح الشقّة لجدي، وأوصاه أن يأخذ ما يريد معه! كانت الشقة مليئة بالكتب والأفلام، المكتبة كانت تكسو حيطان الصالة الأربعة، ومكتبة الأفلام تكسو حيطان غرفة النوم، حتى ليظن المرء نفسه ينام في استديو سينما. لم يأخذ جدّي معه شيئاً، استطاع أن يشاهد بعض الأفلام فحسب، وللأسف فإنه لا يذكر شيئاً منها، إلا فيلما واحداً يبدو فيه «مارلون براندو» زعيم عصابة خلّاب، بوردةٍ حمراء على بذّته، وحفنة من رجال أشدّاء يأكلون الصخر حوله، واسم مثير للغاية: دون فيتو كورليوني(14). لطالما اعتقدت بأن جدّي «سهيل زوربا» حلم دوماً أن يكون ذاك «العرّاب» الذي يفعل ما يريده، والأهم أنه يصاحب المرأة التي يريدها.

لكن بقاء جدّي لم يطُل في بيروت بعد ذلك، فقد سقطت في يومٍ حالكٍ قذيفةٌ حرقت القسم الأعلى من البناية، وجعلت الدخان والبارود وشظايا الحجارة تطمر جدي تحتها، قبل أن يتمكّن من الهرب والنجاة بأعجوبة حقيقية، أعاد سردها على مسمعي مئات المرات إلى الحدّ الذي نسيتها فيه!

لم يجلب معه شيئاً من تلك الذاكرة المريرة إلا تلك العلبة، التي

t.me/qurssan

جعلها القدر طوطمي، وصوراً بشعة لاحتراق كنزٍ من الأفلام والكتب، وجملة قالها له الرجل الهارب بجلده قبل أن يغلق باب سيارته:

بشر يقتلون بعضهم كالوحوش لا يليق بهم إلا القبح، أما جمال السينما والروايات فسأتركها للأرواح الهائمة، ربما استفادت منها أكثر منّا.. انجُ بجلدك يا سهيل!

في اليوم الذي أنهيت فيه جميع سيديّات الأفلام التي أمتلكها، قرّرت أن أخرج من الغرفة. كانت قد مرّت عليّ أسابيع طويلة دون نوم حقيقي ومتواصل، أغفو على آخر مشهدٍ من فيلم أعيش في نومي مع أبطاله، وأحياناً أكمل رسم مشاهد جديدة ومغايرة، وأستيقظ بعد قليل لأضع فيلماً آخر. كانت الحياة هناك أمام الكادر وسط كل تلك الأمداء اللانهائية، مع كل تلك اللغات والألوان والروائح والأمكنة والفلسفات والأفكار.

كنت أعيش هناك، أنا «تقوز المرّ» جسدي في واقع وروحي في الـ«هُناك»، على تخوم الحلم والحقيقة، بين الفن والواقع في برزخ الأسئلة، هناك حياة أغنى من هذا الواقع المشؤوم.

في اللحظة التي انتهى فيها آخر مشهد لآخر فيلم لديّ وهو «طعم الكرز»(15)، قرّرت أن أخرج من الغرفة. كان المكان قد امتلأ بالغبار، غبار غبار.. خرج من وراء سيارتي التي تلوب على الدروب المعفّرة، ومن شاحنات الرمل والحجارة تلك التي تلقي بثقلها على طول لحظات الفيلم. الغبار كان كثيفاً حولي حتى أني لم أعد قادراً على تمييز الأغراض القليلة في الغرفة، ولا حتى الخزانة القريبة التي كان يمكنني قبلاً أن أمدّ يدي وأنا مستلقٍ على السرير لألمسها. وحده خيالي القاتم ينعكس على سيل الرمل والبحص النازل من الشاحنة العملاقة من الشاشة إلى أرض الغرفة. صرت أسعل وأسعل حتى أوشك الغبار على خنقي. ثمة شخص كان يناديني: يا سيد «بادي».. يا سيد «بادي»...

ربما أتى بخبرٍ ما، فقد كنت أبحث عن شخص يدفنني بعد أن

t.me/qurssan

اعترفت أمامه قبل قليل، هنا في هذه الغرفة، بأن الانتحار من الكبائر: **ولكن أن تكون حزيناً أليس هذا من الكبائر أيضاً ؟ أن تؤذي الآخرين بيأسك ، أن تؤذي من تحب بحزنك الذي أضحى يأساً لا قرار له ولا نهاية ، فجوة كبيرة مملوءة بالغبار ، أليس هذا من الكبائر؟**

بلى، من الكبائر!

همست، وتذكرت لحظتئذ وجه عمّتي وقت كانت تنشج أمام سريري في المستشفى، بعد أن حاولت الانتحار. ذلك أن هناك وقتاً لا يستطيع فيه الإنسان الانتظار، إنه يُستنزف تماماً، ولا يعود بمستطاعه انتظار إرادة الله، لذا فإنه يقرّر فعل الأمر بنفسه!

في تلك اللحظة قرّرت الانتحار، ولكن ليس بالطريقة التقليدية المملّة التي كنت قد قرّرتها، بل قرّرت الانتحار بأن أخرج من غرفتي، حفرة أماني الوحيدة، إلى ذاك العالم القذر الذي تحكمه آلات صنع المال وآلات جمعه وضحاياه.

سأخرج إليكم أيها الآسنون الراكدون كمستنقع، المسيّجون برتابة قاتلة، اللاهثون وراء التوافه التي تشبهكم! وفي الوقت الذي كان فيه صوت كتيبة من الجنود المجهولين يذهب إلى اللامكان، كنت أنا «بادي» أخرج من جحري الذي تمدّدت فيه طيلة الليل بانتظار ابن عاهرة يردم التراب فوق جثتي الحية وينقذني. ولأن أحداً لم يرمِ التراب فوقي، لم يكن لي أن أشعر بأيّ امتنان تجاه أيّ واحدٍ منكم، أيها الآسنون الراكدون كمستنقع، المسيّجون برتابة قاتلة، اللاهثون وراء التوافه التي تشبهكم!

أخرج من الحفرة، أنفض الغبار العالق بثيابي وشعري، أبصق بقايا منه كانت محشورة في فمي، وأمضي...

كان «أشرف الورّاق» ينتظرني عند ناصية الشارع. يبدو أكثر بدانةً ببلوزةٍ قطنية خفيفة بلون الفستق، تناسب هذا الوقت من السنة في الإمارات، شهر شباط هنا أشبه بالربيع!

t.me/qurssan

- سنذهب أنا وأنت لنتعرف على واحدٍ من أهم الشخصيات هنا، وكيل السيجار في المنطقة كلّها.

قال «أشرف»، وذهبنا.

لم يكن قد مضى وقت طويل على معرفتي بـ «أشرف»، تعرّفت إليه حين كنت ما أزال أعمل في الماكدونالدز. عرفني من لهجتي السورية حين كنت أتعارك مع زبونٍ أجنبيّ صار يشتمني لأنني قدّمت له هامبورغر الدجاج بدلاً من هامبورغر اللحم! قال لي في ما بعد إنه سمع ذلك الصوت الذي لا يشبه جوقة المنشدين المحيطة، صوت نشاز، خارج عن المألوف في ذلك المول الكبير الذي لم يسمع فيه أيّ صوتٍ خارج عن المألوف منذ خمس سنوات عمل فيها هناك حتى اللحظة.

«أشرف الورّاق» شابّ في بدايات ثلاثينياته، مربوع، ويملك كرشاً كبيراً وعينين واسعتين سوداوين برموش غزيرة، الأمر الذي يجعله يشبه شخصية الدبدوب المحبّب في رسوم الأطفال. يعمل في متجر كبير لشركة نوكيا في الطابق نفسه. لسببٍ ما يتعلّق بعالم مغاير لهذا العالم، أصبحنا في لحظة أصدقاء! لم يكن هناك أشياء كثيرة تجمعنا، كنا كائنين متناقضين للغاية. شيء واحد فقط كان يجمعنا لا يمكن لكل شخص أن يراه أو يلمسه، أمر يشبه نواة صغيرة في وسط بلازما. لنتخيّل أن الروح كتلة متلاطمة من التجاذبات والتيارات، وثمة هناك في الوسط تماماً، في العمق الداخلي، ذرّة صغيرة صافية ومضيئة، هذه هي بالضبط ما جمعتنا، تلك الذرة المضيئة داخل «أشرف» التي كنت أستطيع التقاط شعاعها وسط أشدّ حالات الكدر والضبابية.

لم يكن «أشرف» قد سمع بشيء اسمه موسيقا الجاز مثلاً، ولم أستطع حتى الآن أن أفهم كيف يمكن للمرء أن يعيش حياته بكاملها دون أن يسمع «لويس أرمسترونغ» أو «بيني غولسون» في أغنيته «Whisper Not». لم يسمع أغاني «زياد الرحباني»، ولا تلك المقطوعة الساحرة «Autum Leaves» لـ«Chet Baker» و«Paul Desmond». لم يكن لدى «أشرف» أي معلومات تتعلّق بالسينما إلا

t.me/qurssan

أفلام السينما المصرية، التجارية منها على وجه الخصوص! ولا يعرف شيئاً عن الموسيقا إلا أغاني فيروز في الصباح وأمّ كلثوم عند قدوم الليل. لكن مع ذلك وجدت نفسي في داخل ذلك الرجل، كان هو المكان الذي وجدت فيه «تمّوز» القديم، «تمّوز» البريء الذي كان يمشي على شاطئ البحر حتى جرف محيسن، يجلس على الصخرة ويحلم بأن يصبح صانع أفلام لا يُشقّ له غبار.

لم أتخيّل أن يكون هناك مكتب بهذه الفخامة في حياتي!

هناك على الحائط صورة كبيرة لوعاء فخاري فيه أوراق تبغ مربوطة بخيط يجمعها، مكتوب تحتها: «سيجار حضارة المايا».

- هذا أول اكتشاف للسيجار في غواتيمالا في القرن العاشر.

كان «فاروق الشامي» يشرح لي، وهو يقبض بين أسنانه على سيجار بديع عسلي اللون. يشبه «ريتشارد غير» إلى حدّ بعيد، خصوصاً وهو يحتضن خصر صاحبته الروسية الشقراء التي تتمايل قرب مكتبه بغير سبب، كان «ريتشارد غير» يحتضن خصر «جوليا روبيرتس» في فيلم: امرأة جميلة، واحد من أسوأ أفلامه على الإطلاق!

هناك في ذلك المكتب باهظ الفخامة تعرفت على قهوة الإكسبريسو لأول مرة، ووقعت في عشقها طيلة حياتي، لها طعمٌ كثيف حليبي ولاذع، خلطة مغوية هائلة لم يُقدّر لحواسي أن تلتقطها قبلاً. تعرّفت كذلك في تلك الزيارة على لذعة السيجار. السيجار والإكسبريسو أصبحا العشق الوحيد الذي لن يفارقني طول عمري!

- لن أستطيع أن أضيّفك سيجار «كورخا Gurkha Black» فهذا سعره يقرب من 1000 دولار هههه، لكني سأضيّفك سيجار «كوهيبا» سعر الواحد يقرب من 40 دولار، ما رأيك؟ وهناك نوع منها يسمى «كوهيبا بيهايك Cohiba Behike» يبلغ سعر السيجار الواحد حوالي 450 دولارا!

وضحك وهو ما يزال يقبض على السيجار بأسنانه، وعلى خصر

t.me/qurssan

الشقراء بجانبه بأصابع كفّه.

«فاروق الشامي» كان يجمع بين الرأسمال وفلسفة التمتّع به، بين توحّش رأس المال وجنون الفن، جنون الفنّ الذي وحده القادر على سلب الرأسمال حمّى الجذب والمراكمة باتجاه البعث والإرسال. نقيضان صارخان شكّلا شخصيته برمتها. منذ اللحظة الأولى تولّدت بيننا صداقة غريبة: فاروق، أشرف، وأنا. ثلاثة أقطاب لثلاثة عوالم مختلفة، وفي ذلك اليوم الذي تعرّفت فيه على طيب الإكسبريسو وغواية السيجار، دعانا «فاروق» في آخر اللقاء إلى السهرة، والسهرة كانت في بار فاخر اسمه: «الطاحونة الأرجوانية Le moulin violet».

في اللحظة التي نزلنا فيها من سيارة «فاروق»، واقتربنا من مدخل بار «Moulin noir»، شعرت بموجة من الذاكرة تقذفني إلى الخلف! جفّ حلقي وأحسست ببعض الدوار! رأيت جدّي «سهيل زوربا» يخرج مترنّحاً من باب البار، وينادديني أنا تمّوز الصغير الذي لم أبلغ بعد السنة السادسة من عمري.

جدي «سهيل زوربا» ترك القرية لسنوات عديدة أثناء عمله في بيروت بواباً لبناية فخمة من بنايات شارع الحمرا. بالنسبة لي كانت تلك الأسابيع القليلة التي أقضيها عند جدي في غرفة صغيرة تحت الدرج في شارع الحمرا هي نسغ الحياة، أو لأقل: هي تلخيص لكلّ ملذّات الحياة. رغم أني في الحقيقة لم أكن أفعل شيئاً أكثر من مراقبة جدي في تفاصيل حياته اليومية، ولكن كان لهذا متعة عجيبة وغير مسبوقة.

كان يأخذني معه إلى الديسكو، هكذا كان يسمّيه، وفي الخارج يتركني مع الحارسين المصريين المزروعين أبداً في المكان ذاته، ويوصيهما بي خيراً. الحارسان العملاقان يهدران معاً:

- ما يهمّكش يا فندم، الواد في عيوننا.

- تسلَم عيونكم!

يردّ جدي، يربّت على رأسي ويمضي إلى الداخل.

t.me/qurssan

حين ينفتح الباب قليلاً تلفحني روائح غريبة، أصوات موسيقا عالية وبعيدة، ضحكات وضباب. في مرّات غاب جدي لأكثر من ست ساعات متواصلة! كنت أسأل الحارسين المصريين المتأففين كل هنيهة عن الساعة، فيجيبان ببرود وأحياناً بتبرّم. لا يمكنني أن أنسى ذينك الجسدين المهولين الأسمرين بشدة والرابضين على الباب وهما يخرجان الكلمات الباردة من فوهة ما لا يمكن أن تكون الفم أبداً! عيناي مسلّطتان دون هوادة على الباب، يفتح فتنعكس على الحائط المقابل أضواء الطيف، تتحرّك نقاط وبؤر لون، وتتناهى إليّ الأصوات نفسها والضحكات والموسيقا، يغلق الباب فتغيب، وأبقى متلهفاً بانتظار انفتاح آخر للباب.

في الحقيقة لم أكن أسأل الحارسين عن الساعة لأني ضجرت، أو لأني كنت أريد أن يخرج جدي إليّ بسرعة لنمضي، بل على العكس، كنت أتمنى أن تطول هذه الساعات وتطول حتى لا تنتهي، وإن لم أكن أستطيع الدخول إلى هذه العوالم السحرية فلأراقبها من الخارج، وأتخيّل ما الذي من الممكن أن يكون في الداخل! تخرج أحياناً نساء ضاحكات بجوارب شبكية، فساتين مليئة بالدانتيلا والشيفون، وأحمر شفاه صارخ في معظم الوقت. مراقبة «الديسكو» من الخارج كانت أكثر متعة بكثير من مراقبة عالم المول، وأكثر وعداً. تلك العوالم الغريبة أذهلتني!

الآن، وأنا أدخل باب البار وقفت قليلاً، كنت أنتمي حتى اليوم، بل حتى اللحظة، إلى العالم الخارج عنه، وها أنا ذا أدخله. لم يكن ثمة من مال يكفي للعيش حتى نهاية الشهر، وإرسال القليل من المال للعائلات المنتظرة بفارغ الصبر في البلد، فما بالك بالدخول إلى بارٍ يبلغ سعر المشروب الواحد فيه مصروف أسبوعٍ لعائلة في بلدي!

اختفى طيف جدّي ودخلت.

حالما جلسنا إلى طاولة سوداء، تحيط بها كنبايات وثيرة من جلدٍ أسود لقاع، جاءت فتاتان بارعتا الجمال لتجلسا معنا، كان يبدو أن «فاروق» يعرفهما جيداً. أخرج الأخير ثلاث علب سيجار

t.me/qurssan

وأعطى كلاً منّا سيجاراً، كما طلب - دون أن يسألنا - مشروباً. كانت المرة الأولى التي أشرب فيها كوكتيلاً كحولياً لذيذاً كـ«موخّيتو».

المكان المتخم بالنساء الجميلات من كل الألوان والأشكال، المليء بروائح العطور والحشيش والدخان، ذو الجوّ الضبابي والرؤية المشوّشة، والساحر، جعل كمّاً غير منضبط من الصور السينمائية يمر أمام عيني. كل مشهد رأيته في بار لاتيني، أميركي، عربي، هندي، حضر بكل سطوته في تلك اللحظة، فارضاً نفسه، مزاحماً المشاهد الأخرى في رأسي! شعرت بأن المكان يدور بي، الوجوه تتراكم، الروائح تتداخل، المشاهد تمتصّني، ثم غاب كل شيء!

لم أعرف كم مرّ من الزمن حين فتحت عيني. رائحة واخزة في رأسي، و«فاروق» ما زال يمرّر محرمة مضمّخة بالكحول تحت أنفي. وجه «أشرف» شاحب وقلق.

قال لي «فاروق» وهو يقهقه ساخراً: في البار وحصل معك ما حصل، ماذا لو أخذناك إلى بيت الشراميط، ماذا تفعل؟! غداً حين ستخرج فيلماً عن عالم الليل سيغمى عليك وسط الممثلين وتصبح أنت الفيلم!

كانت القهقهات تحيط بي كدوّامة لزجة!

في ليلةٍ دعا أشرف «نتاشا» و«جوليا» ليسهرا معنا. كان «فاروق» قد سافر مع صاحبته الشقراء إلى إيطاليا، وكانت المرة الثالثة التي تأتي الصديقتان فيها إلينا، منذ أن تعرّفنا إليهما في بار عتيق يدعى «بوزيدون Poséidon» أصبح البار المفضّل لديّ.

كنت قد انتقلت منذ ثلاثة أشهر للسكن مع «أشرف» في شقّته الصغيرة التي تتكوّن من غرفة وصالون ليس غير! جاء في يومٍ إلى غرفتي الضئيلة دون نوافذ، حمل كومبيوتري وسيديات أفلامي دون أن ينبس بكلمة، وضع طوطمي الأرجواني الدائري «مزرعة الحيوانات» تحت إبطه ثم صاح بي:

t.me/qurssan

- «يالله! ضبّ هالكم قطعة ثياب عندك، واترك هذا الجحر. هذا مكان لا يليق إلا بجرذ، وأنت أكبر من ذلك بكثير.. لم تأتِ إلى هنا لتعيش حياة الجرذان!».

من ذلك اليوم وأنا أسكن عنده في شقّته.

جهّز صديقي زجاجة ويسكي «Scotch» وبعض المكسّرات على الطاولة النصفية في الصالون. أما أنا فأخذت سيجاراً جديداً من علبة كوهيبا أهداني إياها «فاروق» قبل عدة أيام.

في المرة الأولى التي جاءت فيها «نتاشا» و«جوليا» إلى الشقة، لم أقرّر فوراً من التي سأضاجعها ذاك اليوم. البنتان بدتا جميلتين، كلتاهما روسيّتان طويلتا القامة، بيضاوان، «نتاشا» بشعر أشقر مجعّد وعيون زرقاء، و«جوليا» بشعر غامق وغمازة على خدّها الأيمن. لكن سبباً ما في نهاية السهرة جعلني أستجيب لمداعبات «جوليا»، وأدخل معها إلى الغرفة الداخلية، تاركاً الصالون لـ «أشرف» و«نتاشا». لكن، وأنا أدخل الغرفة مع «جوليا» مودّعاً من في الصالون، قررت أني سأجرّب مضاجعة «نتاشا» في المرة القادمة! لم تكن مضاجعة «جوليا» سيئة، كانت نحيلة بعظام نافرة، حتى أني لم أمسك إلا العظام في كل مرة كنت أتحسّس تفاصيلها، لكنها مرنة في السرير ومبادرة.

اليوم قال لي «أشرف» إنها ستكون المرة الأخيرة التي تأتي بنات الليل فيها إلى البيت، سيخرج تماماً من شكل هذه الحياة، سيدخل كادراً آخر لا مكان فيه لسهرات العربدة التي نقيمها، لأنه ببساطة سيتزوج، سيسافر إلى سوريا، وهناك سيتزوج خطيبته التي تنتمي إلى مكان آخر تماماً، ويأتي بها هنا.

- عندي رغبة أن أبدأ شيئاً جديداً، حياة جديدة أكون فيها بذاكرة نظيفة، بجسد نظيف كذلك، هل يمكن للمرء أن يغسل روائح النساء عن جلده؟!

سألني «أشرف» بالعربية وأنا أغلق الباب خلفنا.

في تلك اللحظة التي أغلقت الباب فيها، تحوّلت «جوليا» أمامي

t.me/qurssan

إلى «ماريا براون»(16)، بفستانها الأسود المزنّر بالدانتيلا! جلست «ماريا» وراحت تتكلّم الألمانية معي، ولدهشتي فهمت كل كلمة قالتها، حدّثتني عن حبيبها العسكري في الجيش، عن روحها التي لا يمكن إلا له أن يملكها، أما الجسد فهذا شيء آخر، إطار خشبي لا يؤثر على حقيقة الصورة في قلبه!

لم نتضاجع أبداً، بقينا نحكي حتى انبلج الصبح، وأغفينا معاً على طرف السرير. ماذا سيكون رأي جدي «سهيل زوربا» إذا قلت له إني قضيت الليلة مع شابّة جميلة بجلدٍ أبيض وشعر قاتم ونحن نتحادث؟! سيشتمني ساخراً، سيقول لي إني أشبه أبي ذاك الذي مات ولم يعاشر امرأة إلا أمي! سيعيد عليّ بيتاً من الشعر من القصيدة «اليتيمة» التي لم يحفظ يوماً غيرها:

فالوجه مثل الصُبح مبيضٌّ والشَّعر مثل اللَيل مسودُّ

ضدّان لما استجمعا حَسُنا والضِّدُّ يُظهِرُ حُسنَه الضدُّ

فقد كان جدّي يستعين على الدوام بأحد أبيات هذه القصيدة، بيت من الشعر يناسب جزءاً ما من جسد المرأة، وكان هناك دوماً جزء ما يمكنه أن يستعين به.

في حديث الليل مع «جوليا» بتّ متأكداً كم هو الإنسان نتاج حكايته! وكم تشكّله تفاصيل ماضيه، قصّته وذاكرته هما كل ما هو عليه الآن. وسيكون «الآن» سبب ما سيكون عليه غداً! وما مصائرنا إلا نتاج حكاياتنا. لكني لم أستطع أن أتخيّل أن يكون مصير هذا الجسد المُغوي الاحتراقَ بانفجار الغاز، كما كان مصير «ماريا براون»! كان مصيراً مشابهاً للغياب ولكن ليس بالغاز، فبعد عدّة أيام عادت «جوليا» إلى وطنها، ورحلت معها قصة جديدة بتفاصيل مؤلمة ومشروع معاشرة فاشل.

كان لدى «جوليا» ابنٌ في السادسة من عمره، تتركه عند صديقتها حين تغيب للعمل، تسافر بعيداً عنه أربعة أشهر وتعود إليه أربعة أشهر، وهكذا. هاربة من زوج أمٍّ عاهر، كما كانت تسمّيه بإنكليزية موسومة بلكنة روسية ثقيلة، اغتصبها وهي في السادسة عشرة

t.me/qurssan

من عمرها، قبل أن تهرب من البيت دون عودة.

- وهل قبلت أمُك بالأمر؟!

- لم أخبرها، ولا أعرف ما إن كانت تعرف أصلاً! لكن أنا كنت أحسّ بأنها تعرف. نظراته الشهوانية نحوي، كلماته، ومحاولاته الدائمة أن يلمسني، كانت ترى كل هذا وبقيت صامتة!

- ولمَ لم تخبريها؟ ربما كانت فعلت شيئاً ضدّه، أخبرت الشرطة.. قتلته مثلاً!

- لم تكن لتفعل شيئاً ضدّه، فقد كانت غير قادرة على العيش دونه، أمر يشبه الإدمان على المخدرات bastard.

حرف الراء الذي يرنّ في إنكليزية «جوليا» مثيرٌ للضحك حقيقة، على الرغم من تفاصيل قصتها الفاجعية.

زوج الأمّ، الذي لم يغادر مدينته «دزيرجينسكي» في موسكوفسكايا، انهار كما انهار كل شيء حوله في يوم من نهايات عام 1991، ظلّ بعد ذلك أسيرَ البيت والخذلان. يستيقظ صباحاً ليبدأ بشرب الفودكا، ولا ينتهي منها إلا حين يسقط ليلاً فاقد الوعي. والجدّة، التي كان عليها أن تعمل كلّ يومٍ لساعاتٍ طويلة في معملٍ للدجاج، لم ترَ حفيدها يوماً!

- كانت سعيدة لأنها تعمل أكثر من 12 ساعة في اليوم! تخيّل! كانت تقول إن العمل أفضل مهانة من بيع الجسد، وتركتني لذلك العاهر يفعل بي ما يشاء.

ذاكرة «جوليا» مليئة بكرهٍ أعمى لرائحة الرجال، على وجه الخصوص لرائحة الكحول التي تتصاعد من أنفاس الرجال حين المعاشرة، كرائحة الكحول المقرفة التي كانت تتصاعد من أنفاس زوج أمها حين اغتصبها في ليلة شتوية معتمة، والأمّ ما تزال في عملها.

- بعد ذلك قرّرت ألا أقع في غرام رجل، يكفي أن أقبض ثمن متعتهم المقرفة، وثمن تحمّلي لرائحة الكحول من أفواههم.

t.me/qurssan

- ووالد ابنك؟

- حقير كذلك bastard.. كل الرجال متشابهون!

وأشعلت سيجارة «دافيدوف» بيضاء ونحيلة دون أن تعتذر مني، بل دون أن تنظر في وجهي. ألم تكن تعتبرني رجلاً؟!

لاح طيف جدّي يقهقه ساخراً مني ويهتزّ شارباه.

كان عالم بنات الليل قد بدأ يذهلني! لكل واحدة منهنّ حكايتها المختلفة عن الأخرى، لكل واحدة شخصيتها المتفرّدة، أداؤها، وجمالها كذلك. عالَمٌ غنيّ متاح أمامك كل يوم لتكتشفه. والأمر لا يتعلّق بممارسة الجنس فحسب، بل أبعد من ذلك بكثير، تكون العلاقة الجنسية فيه باباً لأشياء وتفاصيل كثيرة أخرى. أحببت ذاك العالم الغريب، الفائض بالصور، كأنك كل يوم ترى فيلماً جديداً.

في ذلك الوقت لم أكن أشاهد الأفلام كثيراً، كنت أعيشها.

عشقت هذا العالم، عشقت طزاجته الدائمة والدهشة التي يبعثها في أيامي. لم أرَهُنّ يوماً عاهرات، إنهنّ ببساطة بطلات متباينات في أفلام مختلفة، كلّ فيلمٍ يفوق سابقه روعة. بعضهن بسيطات، أو لئيمات، بعضهن باردات وهناك حارّات منهن!

- بيع الجسد أفضل بكثير من بيع الروح.

همست «تانيا» ذات فجر قبل أن تغفو وهي تتوسّد ذراعها البيضاء وقد بان التاتو عليها أكثر بروزاً: وشم لسربٍ من الطيور المحلّقة.

- أمثالنا يبعن أجسادهن فقط، تبقى أرواحنا نظيفة. أليس أفضل من اللواتي يبعن أرواحهنّ، ويجلسن معزّزات مكرّمات في بيوت أزواجهن، يحلمن بحياة أخرى ورجال آخرين؟!

أما هذا النوع فهنّ المتفلسفات، اللواتي يخلقن أجوبة ومبررات لكل الأسئلة والشكوك التي تراودهن، ولا يرضين أن يكنّ مجرد

t.me/qurssan

بنات ليل يقبضن أجرة مقابل الجنس.

كنت سأسألها عما إن كانت قد رأت فيلم «فاوست» عن ذاك الدكتور الذي باع روحه للشيطان. لم أكن قد رأيت إلا نسخة قديمة صامتة من الفيلم، وكذا أكثر من نسخة «أنيميشن» ورسوم متحركة. فكّرت لو أن الشيطان «مفيستوفليس» يأتيني الآن، ويعرض عليّ أن أعيش حياة مليئة بالمغامرات، غنية، مكشوف عنها الحُجب وسعيدة، فلن أتردّد ولا ثانية في بيع روحي له!

هممت أن أحدّث «سهير» بالأمر، أردت أن أقول لها إن حياة فقيرة بسيطة لا تستحق أن تعاش. ينتابني شعور بأني أشبه بـ«هامستر» في دولاب متحرّك، تفقد الحياة كنهها، معنى وجودها، وكذلك حجّتها! ربما كانت أولئك النسوة اللواتي تحدثت عنهنّ قد بعنَ أرواحهن للشيطان، تماماً كما فعل «فاوست»، للخروج من أسر حيواتهنّ الضحلة كحياة الهامسترات. لكن تنفّسها المنتظم وهي تنزلق في عالم النوم ألجمني!

«سهير» لم تكن من نمط «تانيا» أبداً، وليس من السهل خوض نقاشات مشابهة معها. الأمر بالنسبة لها كان أتفه من أن تخلق له مبررات وأفكاراً. ربما كان عليّ أن أبدأ الحديث معها بفكرة أخرى تشدّها، وها هي ذي ترتدي ثيابها وتذهب دون أن أعرف ولا معلومة واحدة عن حياتها، سوى أنها تمارس مهنتها بصمت، بآلية، وبرتابة من قضى في مكتبه أربعين عاماً يمارس الأعمال اليومية ذاتها دون أيّ تغيير يُذكَر.

أما «إيزابيل» فقد حدّثتني عن أمزجة الزبائن الغريبة والمنفّرة في أحيان كثيرة، كانت من النوع الذي إن بدأ الحديث فلا يمكن أن يسكت. حدّثتني عن زبون لا يأتيها إلا ومعه عضو بلاستيكي صلب كي تولجه فيه، وحين عرف بأنها كتومة (هذا ما وصفت نفسها به عدة مرات خلال حديثها) لم يعد يذهب إلى واحدة غيرها أبداً. أما الزبون الآخر فقد كان عليها أن لا تكلّ عن ضربه حتى يصل إلى حالة التوهّج الجنسي، بعد أن يكون جسده قد أُثخن بلسعات السوط. هناك رجل لا يملّ الشتائم، وعليها في كل

t.me/qurssan

مرة أن تبتكر أنواعاً غريبة من الإهانات والتسفيه لترضيه! وهذا ما كانت حريصة عليه. زبون آخر لا يملّ الدموع والبكاء على صدرها، وثمة شيخ كان يريها في كل مرة صور أبنائه وأحفاده، وآخر لا يريد إلا تأمُّل مؤخرتها وهي مستلقية.. وهكذا! كانت «إيزابيل» موسوعة حقيقية لغرائب ذلك العالم، لكنها موسوعة محشوّة بتفاصيل مقزّزة ومريبة بقدر ما هم البشر بالعموم مقزّزون ومريبون. في اللحظة التي بدأت تحدّثني فيها عن ذلك الرجل الذي أرادها أن تجعل منه مرحاضاً صرخت:

لا، أرجوك لا تكملي.. لديّ عمل وعليك أن تذهبي...

حين رأيت الصبية «أوفيليا» بطلة «Pan's Labyrinth» أو «متاهة إله القطعان»(17)، تلك التي تعيش في عوالم السحر الملوّنة بعيداً عن عالم البشر، تستعيض عن الحرب والكره والدمار بحكايات الجنيات، حبّهن، وتفاصيل التيه في المتاهة السحرية، تذكّرت جدّي! في الحقيقة أنا لا أنساه حتى أتذكّره، لكني بالأحرى تذكّرت حبيبة جدي «هاجر» التي لم تغب عن أحاديثه على مدى سنواتٍ عشرين قضيتها معه.

كنت أراقب «أوفيليا» الأميرة «موانا» ذات الشعر الأسود الفاحم والعينين المكحّلتين الخلّابتين، ابنة ملك العالم السفلي، ولا يمكنني إلا أن أتخيّل تلك الشابة التي سكنت حكايات جدي، وتخيّلتها تشبه الأميرة حدّ التطابق!

«هاجر» لم تكن فتاة عادية، كانت شيئاً غريباً مميّزاً ومتعدّداً: ساحرة خلّابة، كما كان يعتقد جدّي، مجنونة، كما كان يعتقد أهل القرية، وممسوسة كما كان الشيخ «وفيق» يؤمن! الأمر الذي جعله يبقم شطر بيت أهلها في كل مرة كانوا يتأخرون في جلبها إليه، ليقوم بطقوس طرد الجنّيّ الذي استوطن جسدها الفتيّ المثير!

«هاجر»، التي كانت تكبر جدّي بعشر سنوات على الأقل، كانت عشقه الأول والأخير: فتاة دائمة الشرود، علّمتها أمها القراءة على غير عادة فتيات القرية اللواتي في مثل سنّها، أمها التي تعلّمت القراءة في بيت الإقطاعي مع أولاده وبناته حيث كانت تخدم

t.me/qurssan

منذ أن كانت في العاشرة من عمرها، وقبل أن تتعرّف إلى زوج المستقبل وأبي هاجر، الذي لمحته يأتي بأوعية الحليب ذات صباح صيفيّ، وعرَقُه يضمّخ بلوزته القطنية الرقيقة. أما روحها الحرّة الغريبة عن أرواح النساء المقيّدة حولها، فقد أخذتها عن جدّتها الأرمنية تلك التي لم تستطع أن تبقى طويلاً في أسرنا الأرضي، فسافرت مبكراً وهي لم تبلغ الثالثة والعشرين من عمرها بعد، بعد شهرين ونصف من ولادة ابنتها البكر. تعيد «هاجر» سرد قصة عائلتها على أسماع «سهيل». كانت تكلّم نفسها حين لا تقرأ، تهمس لجدّي وهي تراقب الأفق البعيد:

- نعيش كالبهائم في قفص، فيما الدنيا كبيرة، واسعة، غنية، ومليئة بالحكايات!

لم تكن تحبّه، هذا ما اعترف به جدي مراراً، ولم يكن الأمر يعنيه، المهم أن يبقى بقربها! كانت تحبّ هيامه بها، ذاك الهيام الذي يشعّ في كل نظرة من عينيه، ويتصبّغ أحمرَ على جلده. الهيام الذي يجعل روح الهائم موجة من جنون تلفح وجه من يهيم به كلما لاقاه. هذا بالضبط ما جعل «هاجر» ترضى أن يلتقيها «سهيل المرّ» كل يوم على تخوم القرية، بجانب المغارة العتيقة المحفورة منذ آلاف السنين في صخر الجبل. كان يقال إن ثمة ضبعة اتّخذت من تلك المغارة بيتاً لها، ولم يكن هناك أحد من أهل القرية يجرؤ على الاقتراب منها.

كان جدي يشعر بكل جوارحه بأن «هاجر» تعيش في عالم آخر، ولكنه لم يكن يستطيع أن يبتعد عنها خطوة واحدة.

- لو ظلّت هاجر على قيد الحياة لظللت أعشقها حتى آخر لحظة بعمري.

- ستكون عجوزةً الآن في السبعينيات من عمرها!

- وإن يكن، أنا كنت أعشق روحها، خيالها، عقلها الذي لم تحدّه جدران ذلك الزمن، وهذه أشياء لا يمكن أن تشيخ أبداً...

كانت «هاجر» تهيم لساعات طوال، تحلم، تغنّى، تكلّم نفسها، في

t.me/qurssan

النهاية حبسها أهلها في البيت، فقد جاء من يقول لأبيها إن ابنته تعدّ العدّة للهروب مع شابٍّ غريب.

وفي يوم ما اختفت «هاجر»! هكذا ببساطة لم تعد موجودة!

قال أهلها إن الجنّيّ الذي تلبّسها خطفها في الليل! بعض أهل القرية قالوا إن الشيخ «وفيق» قتلها إثر ضربة قوية على رأسها حاول أن يجبر الجنيّ فيها على الخروج من جسدها، غيرهم قالوا إن أهلها ذبحوها ورموا الجثة في النهر! هناك من قال إنها...

ولكن لا يهمّ، فجدّي كان مقتنعاً بأنها رسمت طاقة في الحائط وخرجت منها، فمثلها لا يمكن أن يموت. روحها لا تبقى بين البشر، لا تكبر مثلهم، لا تموت مثلهم، ولا تذوي ذاكرتها!

هل كان هذا ما قاله جدّي «سهيل» حقّاً، أم أنه إله القطعان الذي كان يحدّث «أوفيليا» في ذلك الفيلم «متاهة إله القطعان»؟! لم أعد أعرف!

وحدها روح «هاجر» بقيت دائماً مع جدّي. حتى حين تزوج جدّتي. تلك امتلكت عينين مكحّلتين كعيني «هاجر» وشعراً أسود فاحم كشلّال من ليل يغصّ بالنجوم كشعر «هاجر»، بقيت حبيبته مسيطرة على كل أوقاته. ذلك أن كل ذلك لم يكن له أي معنى، هذا ما اكتشفه جدّي ولكن متأخراً! كان كل ذلك أشبه بقميصٍ لا يغيّر حقيقة لابسه. شكل جدّتي، الذي يشبه «هاجر» كثيراً، فقد تأثيره بعد يومين لا أكثر من الزواج! لم يعد هناك أي شيء يسلّي جدي عن فقدانه، اللهم إلا رحلاته المتكرّرة في اكتشاف النساء الغريبات وعوالمهن السحرية، تلك الرحلات التي راحت تزداد كلما خطا أبعد في حياته الزوجية البائسة.

آخر مرة رأى فيها «سهيل المر» حبيبته «هاجر» كانت في ليلة الدخلة، أتته «هاجر» وسط الظلام فيما كانت عروسه نائمة بجانبه، بعد أن اطمأنت إلى أن قطعة القماش المضمخة بدم عذريتها بأمان في يد حماتها. كانت «هاجر» ترتدي ثوباً أبيض شفيفاً، وتبدو أشدّ شحوباً وهي تتطاير وسط فضاء الغرفة

t.me/qurssan

كريشة من ضياء.

قالت له: «لن ينجح في اختبار الحب من لم تكن حياة حبيبه أهمّ من حياته، من لم يتماهَ مع هالة حبيبه حتى التلاشي!».

وذهبت تاركة جدّي ينشج في الليل وحده.

حين انتهى الفيلم كانت شهقات بكائي أعلى من بكاء جدّي في تلك الليلة، وتضجّ في صالة السينما كصافرة سفينة بحرية. الناس يلتفتون حولهم باحثين عن مصدر الصوت، وحين يلمحون وجهي المبلل المجعلك وأنفي المنتفخ الأحمر كانوا يبتسمون بسخرية. ربما لم يكن جسدي الضخم واللحية الكثيفة المشذّبة على وجهي تتناسبان مع بكائي المفجوع على فيلم سينما، دور تأخذه النساء عادة في صالات السينما لا الرجال! وحدها صبية سمراء صغيرة حدجتني بنظرة متعاطفة وهي تمسح عينيها، قبل أن تلحق مسرعة بالمجموعة التي أتت معها.

هل كان هذا ما قالته «هاجر» لجدّي قبل أن تغادره إلى الأبد؟ أم ما قالته لي «أوفيليا» قبل أن تستيقظ من موتها وتدخل قصر والدها الملك، أميرةً للعالم السفلي بكل غموضه وجبروته! الحب جعلها تتحوّل في لحظات من طفلة مقتولة بيد طاغية، إلى أميرةٍ بهيّة لا حدّ لسلطانها!

لا أعرف، كنت أفكّر، لم أعد أميّز مِن مَن صدرت الكلمات، ولا حقيقة المشاهد من تخييلها. وهل كانت الشخصيات واقعية أم أنها مجرّد شخصيات حكايا!

جلست في صالة السينما وحدي وقد فرغت من ضجّة الجموع، وتحوّلت إلى فراغ صامت غريب لا يشبه حالها قبل دقائق من الآن.

صالات السينما بعد انتهاء العروض عالمٌ آخر تماماً، حبلى بمئات الأسئلة التي تركتها الأفلام فيها، مليئة بموجات من الأصوات المتلاطمة المتداخلة، تغصّ بالعشرات من المشاعر المتناقضة، حتى ليكاد المرء يشعر بأن جدرانها تئنّ من حرارة الأجساد

t.me/qurssan

ولذعة الدمع وضربات القلوب المضطربة. من لم يجلس في صالة سينما فارغة، مليئة بمخلّفات المشاهدين الذين رحلوا، متأملاً في ما رأى قبل قليل، لا يمكن أن يقنعني بأنه عاشق للسينما. أنا أعشق صالات السينما المنهكة بعد انتهاء العروض، كأنها امرأة عاشقة بجسد متعرّق يتضوّع حباً، ترتاح بسكينة بين ذراعي حبيبها بعد ممارسة عاصفة حقيقية وعميقة الغور للحب.

لكني، حتى اللحظة التي طلب مني مسؤول الصالة فيها أن أغادرها، لم أكن قد توصّلت إلى أي إجابات! الأمر الوحيد الذي كنت متأكداً منه هو أننا شيء واحد، يا إلهي كم إننا شيء واحد: نحن والحكايات! نشبهها، نشبهها حدّ التطابق، أم أن الحكايات هي في الحقيقة التي تشبهنا؟! أو ربما هي دوّامة تدور وتدور دون توقّف، لتغدو الحكايات ونحن كتلة واحدة متداخلة الملامح لا يمكن تمييز كل ملمح منها على حدة!

في يومٍ ما سأقوم بصنع فيلم عن قلعة قريتي القديمة، تلك التي تقف بحيادية على الأطراف منذ آلاف السنين:

أتسلّل بالكاميرا إلى هناك، فأنا أحبّ توثيق اللحظة في صورة، إلهام يجعلني أستعيد الذاكرة البصرية في يومٍ ما حين سأقوم بصنع فيلمي الحقيقي. سيكون ثمة عاشقان يتلطّيان في فيء إحدى زوايا السور الحجريّ المعتّق بالطحالب والزمن. سيهربان حالما يسمعان صوت دعسات أقدامي على الأرض، فاكتشافهما يعني فضيحة ستتطّور إلى كارثة لا بدّ من حدوثها. كما حدث مع «نسرين» تماماً، الصبية التي اكتشفها جار بيت أهلها وهي تقبّل شاباً من شباب القرية قريباً من سور القلعة، وذهب ليخبر أباها عن ابنته العايبة التي لوّثت شرف أهلها، ليس شرف أهلها فحسب بل شرف القرية بكاملها. الجار الذي كان ذاهباً ليسرق بعضاً من حجارة السور الشرقي للقلعة ويحمّلها على ظهر حمارته - التي بدأت قوائمها تلتوي من ثقل الحجارة التي يحمّلها صاحبها عليها - شعر بأنه لاقى كنزاً حين اكتشف «نسرين» على تلك الشاكلة. راح يبهّر القصة في مضافة والدها ويحكي تفاصيل القبلة، التي كانت فرنسية كما أكّد مراراً، واللمسات الحميمية بين العاشقين

t.me/qurssan

فوق في القلعة.

- «والله وكان الشب غامرها بإيديه الاثنين وتمّه على تمّها وبعدين مدّ إيدو لـ...»

في هذه اللحظة صرخ والدها متوسّلاً إياه أن يسكت!

في الأيام التالية ترك الشاب العاشق القرية بغير رجعة، وزُوّجت «نسرين» بعد أيام إلى ابن عمها، المتطوّع في المخابرات العسكرية، والذي يسكن في بيت متداعٍ ضمن جملة من بيوت المخالفات على أطراف مدينة دمشق.

في ذلك الفيلم الذي سأقوم بإنجازه عن قلعة قريتي، سأقول كم أحسّ بأنها تشبهنا! هناك قرب أسوارها يقضي بعضهم حاجته، ويمسح مؤخرته بأحد الأحجار الملساء القريبة من يده. هناك لا يمرّ شهر لا يسرق فيه أحدهم حجراً كبيراً من حجارة الأسوار القديمة، فحجارة القلعة عتيقة معتّقة تحمل ما لا يقدر البيتون وخفّان هذه الأيام الهشّ على حمله، لذلك لن يكون لديك خوف على بيتك إن أسّسته بحجارة القلعة.

المرحومة جدتي لم تسمح لجدّي «سهيل» أن يجلب أيّ حجر من القلعة، قالت له إن لعنة جنّيات القلعة ستحلّ على كل من تسوّل له نفسه سرقة حجارتها المباركة، وجدّي «سهيل» كان يصدّق لعنة الجنّيات، بخلاف معظم أهل القرية الذين لم يصدّقوها.

- انظر إلى أبو مرهج كيف أصابه الفالج! وإلى أم عدنان الواوي كيف فقدت زوجها وساقها في حادث سيارة فظيع، لا أحد يعلم إلا الله كيف خرجت منه على قيد الحياة. انظر أيضاً إلى سليم الإسكافي كيف أصابه العمى...

تعدّد جدتي مصائب أهل القرية، وكلها بسبب سرقتهم حجارة القلعة! محاولةً أن تتحاشى الحديث عن المصائب التي مني بها بيتنا أكثر من أي بيت آخر في القرية، رغم أننا لم نقرب يوماً أحجار القلعة المقدّسة!

t.me/qurssan

هناك أيضاً من يزرع مساكب النعنع والبقدونس قرب سور القلعة، فالتربة في الأعلى خصبة كما لا توجد تربة أخرى في كل المنطقة، ذلك أن سفحها القبلي متخمٌ بأجسادٍ مدفونة بعضها فوق بعض، في مقبرةٍ قديمة قدم الزمان. لم أجرؤ يوماً على تناول قطفة واحدة من ذلك البقدونس أو النعنع، رغم أن جارتنا لم تكفّ عن إهداء جدتي مراراً منها. أشعر بأنني سآكل أجزاء من البشر المدفونة هناك. مع الزمن لم يعد أحد من بيتنا يأكل منها، وتُرمى هدايا البقدونس والنعنع فور خروج الجارة من بيتنا.

إلى القلعة تخرج مجموعة الحشّاشين أيضاً، وهناك في لجوة زاوية من زواياها المعتمة يعمّرون السجائر بالحشيش ويقضون سهراتهم يقهقهون. أصوات ضحكاتهم تصل إلى مسامع أهل القرية الذين لا يجرؤون على الذهاب إلى الأعلى واكتشاف سرّ الأصوات! العجائز يعتقدون بأنها أصوات الجنّ الساهرين ليلاً، ويقضون الوقت في تمتمة الرقى لحماية عقول أهل بيتهم، فلجنّ القلعة قدرة، لا أحد يشكّ بجبروتها، على غسيل العقول وتطويعها لخدمتهم! أما حين يحلّ الصباح فينسى الناس ضحكات الجنّ الليلية وما تمتم عجائزهم به، ويعودون إلى ممارسة ما كانوا يمارسونه قبلاً مع قلعتهم!

أترون كم أن فيلماً عن قلعتي تلك سيكون مثيراً!

منذ أيام قليلة أمّن لي «فاروق الشامي» وظيفة جديدة في شركة «نوكيا» للاتصالات، وبدأت بالذهاب إلى عملي كمسؤول توزيع موبايلات نوكيا، الشركة الحصرية في عموم الإمارات المتحدة. في يومي الوظيفي الأول قرّرت أن أحلق ذقني كلّها، لأبدو أقرب إلى رجل أعمال حقيقي، وليس كمغنّي جاز متجوّل كما كنت! وبدا لي وجهي الخالي من الشعر في المرآة كمؤخرة امرأة ممتلئة!

- لن تخنقك روائح اللحم والصلصات بعد الآن، ولن تُجبَر على مراقبة الزبائن وهم يلوشون البرغر، ستغرق في عوالم جديدة أرحب وأكثر نظافة. ولن نستطيع في المستقبل أن نمحو رائحة

t.me/qurssan

وأطلق «فاروق» قهقهته المعهودة وهو يُطبِق على السيجار بأسنانه. ثم أردف: وسنحتفل اليوم بهذه المناسبة العظيمة في مكان جديد.

في ذلك المساء الاحتفالي تعرّفت إلى «مليكة» الأوزبكية، تلك المرأة التي لن تغيب عن ذاكرتي يوماً. رأيتها تجلس وحدها إلى البار، ترتدي رداءً أرجوانيّ اللون مفتوحاً من الأمام وقد تدلّى من كل أطرافه ريشٌ غزير وأرجواني، جعلها أشبه بطائر فلامينغو عملاق. كانت تدخّن بشراهة، سيجارة وراء الأخرى، وأطول من أيّ رجل في المكان وأكثر ضخامة وامتلاء: رأس صغير بشعرٍ خفيف إلى الحدّ الذي تبان فروة الرأس من تحته، مصبوغ بالأشقر وما تزال جذوره قاتمة وواضحة، ملامح كبيرة قاسية، وصوت ضحكة عالٍ يرنّ في كل البار! فيما ضاع الكرسي الصغير المرتفع تحت ثقل مؤخرتها الوافرة.

لسببٍ ما تركت صديقيّ واتجهت إليها من فوري، وبدأت حديثي معها. كان لديّ فضول لا يمكن مقاومته قادني إلى هناك دون تردّد. رائحتها مزيج من عطرٍ باريسي مرّ ولذعة تبغ مركّز ومتراكم بين شفتيها المكتنزتين المصبوغتين بأحمر قانٍ ولمّاع. إنكليزيتها ضعيفة للغاية، لكنّ صدرها العارم كان كفيلاً بإبقائي قربها. ما الذي سيكون عليه الحال مع جسد امرأة طاغٍ كجسد هذه الأوزبكية؟ جسد يغمرني من كل جهاتي، يحيطني كغيمة ثقيلة، يجتافني ولا يترك لي مساحة أتحرّك فيها؟ كنت قد عاشرت نساء ضئيلات أو نحيلات بالعموم، والآن أسمع جسد «مليكة» يناديني أن أجرّب كيف تكون معاشرة كل هذا اللحم الكثير الفائض؟!

في غرفة النوم في بيت «أشرف» حاولت كثيراً أن أنجح في معاشرة «مليكة»، كنت لسبب ما أنهار كلّما هممت بمعاشرة طيّات اللحم المتراكمة. هل كان الأمر يتعلّق بعيني «مليكة» المتحدّيتين المذبوحتين بسكّين الغواية، أم بجسدٍ مختلف وغير مألوف؟! لم تكن تشبه أيّاً من بنات الليل اللواتي عرفتهنّ، لكن جلدها رغم كل شيء كان ناعماً يميل إلى السمرة، ومع الوقت تبدّدت رائحة التبغ

t.me/qurssan

وراحت مساماتها تنتج مزيجاً من عطر المسك ورائحة عرقٍ حادة ومثيرة.

بعد محاولات عديدة ومحرجة راح العرق يتصبّب مني، وأغرقت الملاءات به، فيما عينا «مليكة» ماتزالان مصوّبتين عليّ لا ترضيان الحياد.

بدأت «مليكة» الأوزبكية بسرد قصتها حالما انهار جسدي بجانبها على السرير، هكذا فجأة ودون مقدمات بدأت بالحديث. كان بلل عرقي قد طال الشرشف والمخدة ووصل إلى الفراش الذي تحتهما! ولم أفهم حتى اللحظة ما هو السرّ الذي جعل كل عاهرة أضاجعها تحكي لي قصتها! هل هو شيء ليّن هشّ في عيني، أم أن أداء جسدي لا يوحي بأني رجل عنيد أبغي متعة عابرة؟! هل هو خلل في رجولتي؟ أم أنه شيء أكثر روحانية، لا تفهمه إلا الأرواح في ما بينها، بينما لا نفهمه نحن بعقلنا الواعي!

تنتابني مشاعر متباينة بشأن الأمر، أفرح وأغضب في الآن ذاته. أفرح لأني ربما ما زلت أحتفظ ببقية باقية من «تموز» القديم، الذي كان يذوب على سرير حبيبته «رشا» يوماً، وأغضب لأني كذلك!

- عندك قلب طيب...

قالت «مليكة» وهي تمسح على خدّي الناعم بعد حلاقة الصباح، ثم أردفت: أنت لم تُرد أن أبقى وحيدة في السهرة؟!

لم يكن الأمر كذلك أبداً، صحيح أن «مليكة» كانت وحدها في البار لم يقترب منها أحد، وبدت لي بمكياجها الثقيل المضحك وفستانها المتلألئ المبهرج، بمئات القطع الفضية المشكوكة على قماشه، مثيرة للشفقة، لكني لم أكن يوماً ذلك الفارس المنقذ لأيّ شخص، رجلاً كان أم امرأة! بيد أن قناعة «مليكة» بداخلي الطيّب جعلتها تحكي لي الكثير، وللحظة اكتشفت بأني أتمدّد على سرير واحد مع امرأة مطلوبة من قبل واحدة من أعتى الجماعات الإسلامية المتشدّدة في «وادي فيرغانة»!

t.me/qurssan

هل كان ما أسمعه حقيقياً؟ أم إنه مشهد آخر تخيّلته من فيلم ما؟ فيلم تبدو فيه «مليكة» صبية لا تتجاوز الخامسة عشرة من عمرها، تمشي بخُطا متعبة ثقيلة على دربٍ طويل وملتفّ بين الجبال في برّية نائية مهجورة. تقترب الكاميرا من البعيد باتجاه الأجساد الثلاثة التي تتقدّم ببطء وتلتقط تفاصيل الوجوه الشاحبة: أمّ وابنها وابنتها، ثلاثة أخيلة بشفاهٍ جافّة مشققة وبشرات لفحتها الشمس والغبار، تحاول اجتياز الحدود باتجاه الجنوب، بعد أن غادروا بيتهم المتداعي على أطراف مدينة «طشقند» قبل أيام. هناك على ملمح البصر، وفوق هضبة مطلّة، تنتظرهم مجموعة من المقاتلين في سيارتين عسكريتين مغلفّتين بالأتربة، ستحملانهم إلى حيث يتمركز جمع المقاتلين الإسلاميين الذين خاضوا تمرّدهم المسلّح منذ بدايات التسعينيات ضد حكم الرئيس الأوزبكي «إسلام كريموف».

«مليكة» كانت صبيّة مشرقة نحيلة لا تشبه نفسها الآن، لم تلحظ نظرات الشهوة في عيون المقاتلين، أولئك الذين التقطوا سحر الشابة رغم كل أوساخ التعب التي تلفّها، ولم تعرف كذلك ما الذي ينتظرها هناك حالما تصل مع أمّها وأخيها إلى معسكرات «وادي فيرغانة». لكن عيونها كانت مبطّنة بالخوف والترقّب وبالإثارة أيضاً!

- رائحته فظيعة، تشبه رائحة الجاموسة التي كانت في بيتنا على أطراف طشقند! البخر الخارج من فمه جعلني على وشك الإغماء في كل مرة اقترب فيها مني بشفتيه والبقيّة الباقية من أسنانه المنخورة...

جعلكت «مليكة» وجهها الممتلئ بقرفٍ انتقل إليّ لتوه. ثم أكملت وهي تحدّق في السقف إن أخاها الذي انتسب إلى المقاتلين، وأضحى كأنه واحد منهم بلحيته الطويلة المخضّبة وشاربه الحليق، غدا غريباً عنها في يوم وليلة، وسكن التجهّم وجهه! أما أمها فقد تزوّجت واحداً منهم كذلك، كزوجة ثالثة، وغدت أيضاً غريبة عنها تماماً!

t.me/qurssan

- لم أعد أرى أمّي كثيراً.

انخفض صوت «مليكة»، وتابعت: أما أخي فقد اختفى بعد إحدى المعارك، ولم نره بعد ذلك! حين سألت عنه قالوا لي إنه انتقل إلى معسكرٍ آخر ليدرّب المقاتلين. وأتى يوم مرّ فيه أكثر من ثلاثة أشهر دون أن تأتيني الدورة الشهرية. رحت أحسّ بأن ثمة شيئاً في رحمي يتكاثف، ربما كان ابن ذاك الشيخ الذي كنت أتمنى الموت كل ليلة حين يطؤني لاهثاً متصبّباً بالعرق.

- ذكّرتك اليوم به؟!

سألتها ساخراً، محاولاً مداراة حرجي من تصبّب عرقي الغزير الليلة.

لم تردّ عليّ!

حالما غفا الشيخ تلك الليلة، قصّت «مليكة» شعرها الطويل الفاحم، وربطت ثدييها وبطنها بقماشة حجابها السميكة. كان الأمر مؤلماً لحامل في شهرها الثالث بثديين محتقنين وجسد بدأ يتحضّر ليأتي بطفل جديد إلى هذه الحياة. وفي عتمة الليل هربت من المعسكر كواحد من الرجال المقاتلين الذين لديهم دوماً مهام مهمة في الخارج!

لا أدري لمَ رأيت «أسامة» بدلاً من «مليكة» تلك الليلة وهي تحكي لي! انفرجت جدران الغرفة الصغيرة وانفتحت على سهول أفغانستان التي عشتها بكلّ حجرٍ وعشبة فيها حين رأيت ذلك الفيلم! وها هي ذي «أسامة»(18)، الطفلة الأفغانية الحسناء متنكّرة بلباس صبيّ وباسم صبي، تجري وقطعانٌ من الضّبية تلحق بها كوحوشٍ تلحق طريدة مرتعبة.

صوت الأم يقول: «يا ليت الله لم يخلق النساء!»، وهدهدة الجدّة تحكي عن قوس قزح الذي يحوّل الفتاة إن مرّت تحته إلى صبي، ويحوّل الصبي إلى فتاة.

«أسامة» الطفلة التي كان عليها أن تعتاد العيش كرجل، في عالم

t.me/qurssan

لا يمكن العيش فيه إلا للرجال، فراغ مقتصر على الرجال، عالم لم يعتد جسدها أن يتحرك فيه بحرية، بقي مكبّلاً بالخوف الذي وحده رافق أوقاتها.

أن تكون امرأة في عالم الرجال تحت حكمٍ كحكم طالبان ، أو أي

حكم يشبهه ، يعني أن يكون الخوف صاحبك ، والحزن هو وحده المسموح به كسمة للعيش ، يعني أيضاً أنك لا تملك من جسدك شيئاً!

كانت «أسامة» تحدّثني طيلة الأيام التي رافقتني فيها بعد رؤيتي
للفيلم.

- هل زرعت شعرك في أضيص؟!

قاطعتها بسذاجة، فأنا أذكر بأنها زرعت خصلات شعرها في أصيص حين اضطرّت لقصّها!

كأنها لم تسمعني، أكملت «مليكة» قصتها منذ ليلة الهرب من معسكر الوادي حتى اللحظة التي وصلت فيها إلى هنا لتعمل فتاة ليل في ذلك البار الغريب على أطراف المدينة!

نظرت إليّ، ورأيت عيني «أسامة» الطفوليتين تشعّان في وجهها، اختفت طبقات المكياج، الشعر المصبوغ بأشقر فاقع والثياب المتلألئة المبتذلة، اختفى كل شيء! لم أرَ لحظتئذ إلا عينين نجلاوين دهشتين بريئتين ومبلّلتين بالندى تنظران إليّ من الغيب.

لم أجد نفسي إلا وأنا أحتضن «مليكة» وأعتذر منها، أعتذر وأعتذر وأكرر الاعتذار، شعرت بنفسي قميئاً، حشرة، تافهاً...

- عن ماذا تعتذر؟!

- عن كل شيء.. سنبقى أصدقاء.

t.me/qurssan

حين تزلّ قدمك في عجلة رأس المال لا يعود ثمة فرصة للخروج، تأخذك الحركة الدائرية لتلك العجلة متزايدة السرعة حتى العدم، تماماً كالعامل «شارلي شابلن»، ذاك الذي لا تنفكّ يداه تتحرّكان بوتيرة واحدة رتيبة ومدروسة كآلة. تجدُ نفسك وقد سُجنت في تلك العجلة، وإن لم تركض معها وتواكب سرعتها نفسها، فستسحقك من دون رحمة.

خلال أشهر انتقلت من موقعي كبائع خارجي في شركة «نوكيا» للاتصالات، لأغدو مدير قسمٍ براتب 10000 درهم ونسبة كبيرة من المبيعات تبلغ 10 %، الأمر الذي جعل كل ما كنت أحلم به في طفولتي يتجسّد أمام عيني، كل حرمان طفولتي! ثم ما لبثت الصفقات أن صارت أكبر وأكبر، في بيعة واحدة استطعت تحصيل ما يقرب من 10000 دولار. كان ينبغي والحال كذلك أن تغدو السيارة أفخم، فتأخذ قرضاً من البنك لتشتري سيارة جديدة، وتزيد من ساعات العمل لتَفي ذاك القرض. لم تعد سراويل الجينز الرخيصة تفي بالغرض، صار ينبغي عليك أن تتهادى ببذّات مترفة من «كالفن كلاين»، وتحاول أن تظهر بمظهر «السبورشيك» من «زارا»! «الكريدت كارت» صارت ضرورة ولم تعد رفاهية، عشاءات العمل في المطاعم الفاخرة أضحت جزءاً لا يتجزّأ من عملك وليست فشخرة.

في عجلة رأس المال الطاحنة تصبح كل الكماليات القديمة ضرورات ملحّة لا يمكن الاستغناء عنها، فيما تُخلق أمامك كل يوم ضرورات جديدة ومفاجئة لم تكن ضروريات قبلاً، وتصبح الحياة من دونها جحيماً، بل صندوقاً من القمامة ذا رائحة كريهة كرائحة العوز. وحين تنظر إلى الخلف تتساءل كيف كنت تعيش كما كنت تعيش؟!

البيت مترف الأثاث، الخادمة والطباخة والسائق والبستنجي، كل ذلك صار ضرورة حياتية! التهمتني تلك العجلة العملاقة بين أسنانها الحديدية الطاحنة. كنت أعرف ذلك، بل أحسّه بكل جوارحي، ولكن الأسنان المتلاحقة المتسارعة للعجلة ثبّتتني

t.me/qurssan

جيداً في ما بينها كلقمة.

ثم بعد أشهر انتقلت إلى رتبة أعلى في وظيفتي. لكن الحلم أيضاً يكبر مع ازدياد مبلغ الرصيد في البنك. حلم دراسة السينما في كوبا تغيّر ليغدو دراسة للسينما في لندن، إنكلترا أكثر رقيّاً من كوبا! تبرّر الأمر لنفسك. ابتعت شاشة «بلازما HD» كأنها شاشة سينما، وضعتها في الصالون كي أستمتع كل يوم برؤية أفلامي. يكفيني مشاهدة للأفلام على شاشة كومبيوتري المتواضع! ووضعت الكومبيوتر القديم في غرفة المكتب كي لا أرميه هكذا ببساطة، فحين هممت برميه شعرت بوخزة في قلبي كما لو أني أرمي صديقاً! كنّا قد قضينا معاً كثيراً من الأوقات المشحونة بمختلف أنواع الانفعالات، لذلك قرّرت أن أتركه كذكرى، تماماً كما تُركت عجلة القطار البخاري يوماً للذكرى!

ذلك الحلم، حلم دراسة السينما في لندن، جعلني مهووساً بجمع النسخ الأصلية للأفلام، وليس كما كنت قبلاً أشتري النسخ الرخيصة المقرصنة. رحت أشتري كل نسخة أصلية بعشرات الدولارات، أضعها في مكتبة من الأبنوس الباهظ، مشغولة يدوياً بمئات التزيينات النافرة، وضعتها في صدر الصاوان الجديد. أجمع الأفلام وأجمعها، وحين سافرت إلى لندن، كي أجري إحدى الصفقات المهمة للشركة هناك، جلبت معي أكثر من 40 فيلماً، من متجر «werjenMegastor»، كان ثمنها يزيد عن 1000 باوند، وحلمت بأن أكون مثل صاحب ذلك المتجر الذي استطاع أن يجمع كل هذه الروائع، تاريخ البشرية برمّته، في مكانٍ واحد وسط عاصمة الضباب الباردة. لكن لم يعد لدي الكثير من الوقت لأستمتع بمشاهدة الأفلام! كان يومي يمضي في العمل، وفي المساء ألتقي بـ«أشرف» و«فاروق» لنذهب إلى بارٍ ما، وفي آخر الليل أعود أنا وفتاة ما إلى البيت. لم يعد لديّ الوقت للسينما، ولم أعد أجد حاجة إلى رؤية الأفلام، كنت أعيش كل يوم فيلماً مع إحدى بنات الليل، عالم لانهائي من القصص الغريبة، بعضها محزن يثير الشفقة، بعضها مسلٍّ، بعضها مثير للغاية، حتى أني فكرت قبل أشهر أن أصنع فيلماً عن العاهرات اللواتي عرفتهن في السنة

t.me/qurssan

الماضية.

طلبت من «أشرف» أن يأتي ليسكن عندي، سأعوّضه عن كل الأيام التي قضيتها عنده في شقته الصغيرة. كنت أحسّ أن وجود «أشرف» في المكان، بل في الحياة، يجعل كل الشياطين التي تتقافز تحت ثيابي تهدأ، كان ذلك الماء البارد الذي يطفئ سعيري، ذلك الحضن الذي أفتقده قدر افتقادي إلى صحبة جدّي «سهيل زوربا».

كنّا هو وأنا ذينك القطبين المتنافرين اللذين أحبهما.

- لا، سأتزوج في شقتي الصغيرة وسأسكن فيها مع عروسي.

قال لي «أشرف» بفرح لم ألحظه قبل في صوته.

- إذاً ابقَ معي ريثما تجلب عروسك صاحبة الحظ السعيد، وبعدها انقلع إليها.

- ...

كنت أعيش واقعاً أستمتع به، ولم تعد شخوص الأفلام تراودني، لم يعد التخييل يعينني على الحياة، صرت أعيش الحياة كممثل رئيسي هوليوودي، له كل شيء ويقدر على فعل كل شيء. بطل خارق، لا حدود لقدراته، ولا ميزانية تحدّ إمكانيات أفلامه!

كنت قد بدأت أقع في فخّي الهوليوودي، أنا الذي كنت أسخر من غرور هوليوود وتبجّحها، تحوّلت إلى واحد من أكبر مريديها، حتى أني عشت الحياة والبطولة والحب كما أرادتها وصدّرتها للبشرية على مدار عقود طويلة.

في ذلك الاجتماع لاحظ جميع المجتمعين أني سكران، حتى أن مشيتي كانت مترنحة على نحو يكاد يكون واضحاً. رائحة الفودكا عبقت في المكان حتى أني شخصياً شممت رائحتي! وكانت آثار أحمر شفاه نسائي من شفاه «فريدريكا» ما زالت واضحة على ياقة قميصي الذي تبقّع بعرقٍ لزج!

t.me/qurssan

لكن ذلك الاجتماع كان ناجحاً كمعظم اجتماعات العمل التي أنجزتها في الشهور الماضية. أحياناً لا يمكنني أن أفهم هذه اللعبة! هل كان مظهري كمدير شابّ لا مبالٍ، يتطوّح سكرانَ أمام العملاء، يرمي النكات السخيفة، ويتجشّأ كل حين، مثيراً وإيجابياً إلى هذا الحدّ؟! أم إنها لغتي الإنكليزية الجيدة لمديرٍ من الشرق الأوسط، ما زال معظم أصحاب الشركات العالمية يتخيّلونه حفرة هائلة من المخلّفات البشرية! حتى أنهم عقدوا الصفقة معنا من فورهم وهم يضحكون ويومئون لي برؤوسهم؟! لماذا رحت أرتفع في السلّم الوظيفي على هذه الشاكلة! لم أبذل أيّ جهد لكني كنت أطفو وأطفو، تماماً كجسد في خضمّ البحر كلما تحرك أكثر، جذبته المياه إلى الأسفل، وكلما قلّل من حركته، بل واستسلم لحركة الأمواج العبثية، طفا بشكل أسهل وأكثر سلاسة! هذا بالضبط ما كان يحصل معي في خضمّ بحر الأعمال الهائج.

كان ذلك في مكانٍ ما قريب من مدينة جنوا الإيطالية. لكني حالما انتهيت من عقد الصفقة وصافحت الأيدي الممدودة، خرجت من فوري. استأجرت سيارة وأجلست «فريدريكا» بجانبي وبدأت رحلتي الإيطالية. لم أتباطأ لآخذ دوشاً على الرغم من الحرّ الخانق الذي كان يعمّ المدينة، قلت لـ«فريدريكا» لن نتوقف حتى نصل إلى شاطئ البحر ونقفز عراة فيه، فضحكت موافقة وعضّت على شفتيها المكتنزتين، حركة سيكسي ميّزتها.

«فريدريكا» صبيّة إيطالية حسناء كنت قد تعرّفت إليها البارحة مساء في بارٍ حارّ رطب وسط المدينة. قرّرت، حالما شممت رائحة الفودكا الخارجة من فمها، ممتزجةً مع عطر أحمر الشفاه البراق، أني سأقضي إجازتي بأيامها الثلاثة معها. ومع «فريدريكا» تعقّبت سفر «صانع الأفلام» من قرية إيطالية إلى أخرى، وسألتها عما إن كانت قد رأت ذلك الفيلم الإيطالي الجميل، ولم تكن قد رأته. من على الشاطئ كان البحر المتوسط يمتدّ أمامي هادئاً وشديد الزرقة. وكنت طائر نورس يحلّق فوقه ويتابع التماعات السمك القريب من سطح الماء، ثم غيمة بيضاء ناعمة ترنو إلى البيوت البيضاء المتراصّة بعضها فوق بعض، على سفح التلة

t.me/qurssan

القريبة، ولمحت عاشقين غارقين في قبلة حارّة على الشبّاك المطلّ على امتداد البحر. ورأيت امرأة تضع الزهور على قبر جديد، فكنت زهرة في يدها. للحظة ما تذكّرت جدّي، ربما كان على الطرف الآخر من البحر وهو يحدّق به كذلك، وربما كان يفكّر بي، فقد مرّت مدّة لم أتصل به، وكنت قد وعدته أن أسافر إليه قريباً. آه يا جدّي! لقد عشقت إيطاليا، أحببتها كما لم أحبّ بلداً أخرى، تماماً كما عشقت أنت بيروت يا جدي، وظللت فيها حتى حين اندلعت الحرب الأهلية. لم تغادرها حين حصار «تلّ الزعتر»، ولا حين قُصفت الأشرفية لمئة يوم من الجيش السوري، إلا أنك تركتها في صيف عام 1982 حين حاصرت إسرائيل بيروت الغربية وكثّفت قصفها عليها. ما زلت أتذكر ما كنت تقوله لي عن أصوات القذائف القريبة جداً رغم أنك كنت في بيروت الشرقية.

بيروت كانت بالنسبة للجدّ هي النساء والسينما، الشيئان الوحيدان اللذان ظلّ يحدّثني بهما حتى اللحظة التي غادرت فيها القرية قاصداً بلاد المال. صالات السينما في ساحة البرج، سينما متروبول، سينما أمبير، سينما روكسي، وراديو سيتي، والصالات الصيفية الخشبية مفتوحة السقوف كصالة ألفونس وصالة أولومبيا. لم يكن سعر التذكرة رخيصاً، لكن صديقه المصري الذي كان مسؤولاً عن قطع التذاكر كان يعطيه تذكرة طالب مخفضة...

- طالب يا سي محمود؟!

يضحك جدّي معه.

- أحسن من أن أكتب إنك جندي يا سي سهيل.

- طالب القرب معناها! هههه...

ما زال النشيد الوطني اللبناني يعني للجدّ، حتى اللحظة، إعلاناً عن فيلم سيبدأ عرضه بعد دقائق. أما سندويشة الفلافل فهي تلك الخاتمة السعيدة التي تلي الأفلام، ويشتريها بربع ليرة لبنانية!

وعدت جدي بأني قريباً سآخذه في رحلة إلى بيروت، قلت له إن المدينة تغيّرت كثيراً وعليه ألا يُفاجأ، وأن معظم صالات السينما

t.me/qurssan

لم يعد لها وجود، أو أنها بدّلت مظهرها كاملاً، عملت ما يشبه الـ makeover.

- حتى لو تبدّلت أشكال أحبابنا نظلّ نحبّهم.

- والربع ليرة لم تعد موجودة، اليوم الدولار الواحد يعادل 1500 ليرة لبنانية...

- معلش.

- «ونساء بيروت تغيّروا كمان يا جدي!».

هنا استغرب جدي كثيراً وبدا شحوب وجهه: «كيف تغيّروا يعني؟!».

- يعني تغيّر مفهوم الجمال، ليس في بيروت وحدها في الحقيقة، لقد تغيّر في بيروت كما تغيّر في كثير من بلدان العالم. مفهوم الجمال تغيّر كما تغيّرت رؤيتنا للكثير من المفاهيم والقيم والأفكار، وما كان يبدو جميلاً لنعومته، لغموضه، ولرقّته، صار ضرباً من الماضي المملّ، واستعاضت الحداثة عنه بالجمال الصارخ، الوحشي، المقتحم، والذي يجعلك تبدو أمامه ضعيفاً صغيراً أشبه بفأر.. فهمت عليّ جدي؟!

في اليوم الذي تعرّفت فيه إلى «ياسمينا» طُردت من شركة نوكيا! حصل الأمر على الشكل التالي: كان ثمة شابّ عشريني من بنغلادش، نحيل حدّ التلاشي، ويعمل في الشركة. في الصباح أتاه خبر وفاة أمه، وقد مرّت ثلاث سنوات طويلة لم يرها فيها. فقد كان عليه أن يسافر على حسابه لزيارتها، الأمر الذي يعني خسارته لمدخرات ظلّ طويلاً يجمعها. كان صوت بكائه يتصادى بين جدران الشركة، ينوح بالبنغالية مفجوعاً، وهو يرجو المسؤولين، بإنكليزية بنغالية، أن يسمحوا له بالسفر. في النهاية انهار في الممر وراح يلطم على رأسه، ثم طفق يلطم رأسه بالجدار!

لم أعرف لمَ فعلت ما فعلته! بكاؤه جعل قلبي يضيق ووخزة لئيمة جعلت عينيّ تدمعان! ربما لأني فهمت ماذا يعني أن يفقد

t.me/qurssan

المرء أمه، وقرّرت أن أحدّث جدّي الليلة، كما قرّرت أن أحجز تذاكر الطيران لأسافر إليه في أقرب وقت. أخذت العامل البنغلادشي بسيارتي إلى حيث يسكن، فيما لم يتوقف على امتداد الطريق عن النواح. كان يتشارك السكن مع عشرين عاملاً بنغاليّاً آخر في مسكن واحد، هو عبارة عن غرفتين مفروشتين بعشرات الفرشات الرقيقة المتسخة. للحظة غامت الدنيا أمامي، كان ثمة صوت حادّ لامرأة تغنّي من مسجّل ما يضجّ في الغرفة، وعشرات الوجوه تنظر إليّ. دخلت كادر فيلم Workingman's Death(19) كانت وجوه عمال الفيلم هي وجوه الشباب في الغرفة، وجوه مكروبة ناحلة وشاحبة تنظر إليّ من العدم! كانوا هناك، هم أنفسهم، على الحدود الأفغانية الباكستانية، عمال معفّرون منهكون، يعودون إلى بيت الصفيح ذاك في نهاية يوم طويل وشاق قضوه وهم يفكّكون الآليات المعدنية الضخمة، وينقلون ألواح الحديد الثقيلة إلى مقبرة الآليات، كأنهم يرمون أعمارهم قطعة قطعة في مقبرة لا يتوقّف توسّعها!

هممت أن أسأل عن الرقيب «ناني مراشمان»، أو عامل اللحام المعدني «عمر خان»، هل هما هنا؟ هما ولا شكّ هنا، أكاد أرى وجهيهما أمامي! الجدران عارية ووسخة، مليئة بحبال تتهدّل عليها قطع ثياب رطبة لتنشف. هنا صورة وردة، وهناك وجه فتاة، وعند الزاوية ثمة كتابات متداخلة مكتوبة باللون الأحمر. رحت أبحث عن عامل لم أعرف اسمه، كان يتكئ على جدار الطوب ويلعب مع حمامة يربّيها في قفص، وبجانبه ثمة صورة مهترئة لفتاة حسناء!

يا إلهي أرجوك.. لا أريد أن أعرف أكثر! هل يمكن أن تكون مآسي البشرية متشابهة إلى هذا الحدّ، وهل يمكن أن يكون القبح معمّماً إلى هذا الحد كذلك؟!

لسبب ما حجزت لذلك العامل البنغلادشي تذكرة على حسابي إلى بنغلادش، وأخذته إلى المطار بعد أن كتبت تعهّداً للشركة بأني أكفله في حال لم يعد من بنغلادش. قوانين العمل هنا صارمة للغاية، فقد كان ذلك التاعس قد وقّع مجبراً، ككلّ عامل مثله، على

t.me/qurssan

عقود بالإنكليزية والعربية لم يعرف ولا كلمة من الكلمات المكتوبة فيها، فهو لا يقرأ ولا يكتب! كما أنه أخذ قرضاً من المؤسسة حالما بدأ العمل فيها، أرسله بكامله إلى أمه لتتعالج به، وها هي ذي الآن تتخلّى عن كل ذلك بمنتهى الوحشية واللامبالاة وتموت. تتركه وحيداً، منهكاً، لا يفكّر بشيء إلا بأن يرى جثمانها قبل أن يُحرق! بدا لي فأراً صغيراً علق في مصيدة أبدية لا يمكنه الخروج منها، وربما أحسست بأني أشبهه، عالق في هذه المصيدة الأرضية دون أن تبدو نهاية في الأفق.

الشيء الوحيد الذي لم يخطر ببالي أنه لن يعود مجدداً، أن يسافر إلى أهله وتستطيل مدة الأسبوعين، التي كان ينبغي أن يبقاها هناك، لتغدو عمراً. لست حاقداً عليه البتّة، لو كنت مكانه لكنت فعلت ما فعله تماماً! لكن الأمر كلّفني طردي من الشركة حين رفضت أن أسدّد ما كان ينبغي عليّ - بحكم الكفالة التي وقّعتها - تسديده.

في ذلك اليوم عدت إلى شقّتي الفاخرة وأنا أفكّر إلى متى يمكنني البقاء فيها؟ كان صوت زوجة الجار يلعلع في مدخل البناية وهي ترمي ثياب زوجها على الدرج، وتشتم بأعلى صوتها جارتنا الأخرى، التي عرفت اسمها لحظتئذ: «ياسمينا» أو «الشرموطة ياسمينا»، كما كانت زوجة الجار تناديها. حاولت أن أهدّئ من روعها، كانت أشبه بلبوة جريحة، رمت يدي التي وضعتها على كتفها لتهدئتها وزعقت:

- «كلكم متل بعض، كل الرجال عرصات لا يلحقون إلا زبابهم، وأحقر شرموطة تجعلكم عبيداً أمام كسّها!».

لهجتها كانت شامية أصيلة، ولم ألاحظ أبداً ذلك من قبل! اعتقدتها لبنانية حين كانت ترمي السلام عليّ وقت أصادفها على الدرج. سمعت لحظتئذ ضحكة نسائية وقحة، بدا الأمر أشبه بفيلم مصري رخيص. لكن في اللحظة تلك رأيت «ياسمينا» التي كانت تضحك على باب شقّتها، وهي تشرّع سيجارتها بفلتر أسود طويل. شقّتها كانت تحت شقّتي تماماً.

t.me/qurssan

في تلك اللحظة ذاتها صدمني وجه «كاترين تراميل» وهي تدخّن سيجارتها أمام المحقق «نيك كوران»(20) الذي كنته، وتفرج ساقيها ليبان طيف أعضائها الحميمة.

قالت لي ببحّة مغوية شهيّة: لم أكن أواعده، كنت أضاجعه!

رغم أني لم أكن قد صادفتها قبل ذلك، بل سمعت عنها باعتبارها امرأة فاتنة لم يبقَ رجل في العمارة إلا وعاشرها، أو رغب أن يعاشرها حتى لو كان الثمن حياته.

- هذه ليست امرأة، هذه محرك ديزل جنسي، لبوة سيكس.

قال لي «أشرف» ذات ليلة، ولم أسأله عما إن كان قد ضاجعها أم لا. لا أعتقد بأنه فعل، فرجل كـ«أشرف» لن يضاجع امرأة مثلها، فقد تبتلع لطفه الوارف بلحظة ككمثرى ناضجة.

في تلك الليلة ذهبت إلى بيت «ياسمينا». فتحت لي الباب بدلال، ولم تسألني أيّ سؤال، بل أفردت لي مكاناً لأدخل! وبلكنتها المغربية المحبّبة جعلتني أدخل سجناً لن أخرج منه بسهولة.

ما الذي سيكون عليه رأي جدّي «سهيل زوربا» لو علم بما حدث؟!

في الليلة تلك قتلتني «ياسمينا»، كما قتلت جارنا الذي رمته امرأته خارجاً، بوشاحٍ حريريّ أبيض و31 طعنة في قلبه، تماماً كما قتلت «كاترين تراميل» عشّاقها قبلاً بوشاحها الحريري و31 طعنة في القلب.

في الليلة تلك وقعت في غرام «كاترين تراميل»، تلك التي كان اسمها لسببٍ ما «ياسمينا». لم يحتج الأمر وقتاً طويلاً لأسقط في حبال الحب! أنا الذي كنت قد وعدت نفسي ألا أقع في الحب أبداً.

ذهبنا معاً آخر الليل إلى بارٍ قريب بعد أن انهار جسدانا من ممارسة الجنس مرّات ومرّات دون انقطاع. طلبنا أول الأمر كأسين «لونغ آيلن»، ثم لم نعد نتوقف، ظللنا نشرب ونضحك، نشرب ونضحك، حتى لم يعد هناك قوة تحمل جسدي فوق ساقي. لم أفكر بوظيفتي التي خسرتها، لم يأتِ ببالي ولو لثانية

t.me/qurssan

أني قد أخسر كل شيء حتى حياتي.

- أحبّ الرجال الذين يهبونني المتعة، ولا يخشون التجارب، مهما كانت غريبة ومكلفة.

قالت «كاترين» قبل أن ننقضّ كلٌّ منّا على الآخر مجدّداً كمسعورين على السرير.

كانت تتصرّف كملكة، تأمر فتطاع، لا حواجز تحدّ جسدها ولا رغباته، الأنثى التي تأخذ زمام الأمور بقوة بين يديها، وعرفت لحظتئذ لماذا كان الجميع يرغبون بها، كل الرجال.

كانت الأنثى التي تقول دون أن تنبس بكلمة:

- أنا الأساس وأنتم الذين تتبعون رغباتي أيّاً كانت، الأنثى الأولى، الأنثى المطلقة!

جلست فوقي وقيّدت يديّ بوشاحٍ حريري أبيض، وقبل أن أصل إلى النشوة، أخذت مكسر الثلج الذي كان قرب السرير وطعنتني به في القلب، طعنتني وطعنتني وطعنتني!

- خيانات الرجل تجعل من المرأة حيواناً نكداً لا يُطاق معه العيش.

قال «أشرف» وهو ينظر إلى كأس الفودكا بالتونيك التي طلبها للتو. كأنه يتحدّث إلى نفسه، أو كأنه يسمّع نفسه تلك الحكمة. كنت قد سمعت تلك الفكرة قبلاً، حكاها لي جدّي «سهيل زوربا» يوماً ما قبل قدومي إلى هذه البلاد، وكانت المرحومة جدتي تصيح يومئذٍ من المطبخ، تشتم وتبصق على الأرض، تفرغ غضبها في وجه كائناتٍ لا مرئية تتخذ شكل جدّي. جدّتي لطالما كانت دائماً نكدة، لا أذكرها إلا غاضبة، حاجباها معقودان، ووجها معتم. كانت تحاول أن تبتسم في وجهي حين أطأ باب البيت، لكنها سرعان ما تستعيد نكدها حين تراني أتضاحك مع جدي مجدّداً على الصوفا في زاوية الصالون. هل كانت تحدس بما نتحدث به؟! ربما. لكن جدي كان يتصرّف مع الأمر كأنه حالة

t.me/qurssan

طبيعيـة، فالحالـة غـير الطبيعيـة هـي أن تكـون الجـدة راضـية مبتسمة.

لكن عمّتي زفرت ذات ليلة قبل شهور قليلة من سفري، وأخبرتني: الجدّة لم تكن دائماً هكذا!

حاولت أن أتخيّل كيف من الممكن أن يكون وجه الجدة، أداء جسدها، حركتها، وصوتها دون أن تكون موتورة بالقدر الذي هي عليه. فشلت في التخيّل. ففي الوقت الذي كان فيه الجد «سهيل زوربا» يعمل بوّاباً في بناية من بنايات شارع الحمرا في بيروت، جاءت جدّتي لتزوره. لم أكن قد ولدت بعد، وكانت جدّتي ما زالت جميلة في بدايات خمسينياتها ولم يأكل الغضب جمالها بنهم. كانت عيناها الخضراوان ما تزالان متلألئتين وجسدها المبروم حيّاً.

- لكن جمال المرأة ليس ما يجعل زوجها مخلصاً لها، بل أشياء أخرى تماماً.

قالت عمّتي. حين كانت تتقمّص «مود» الحكمة ذاك لم أكن أعرفها!

بقيت الجدة عند زوجها أسبوعاً كاملاً. رأت فيه جزءاً من سحر بيروت، وعند البحر صاحت قائلة: لمَ لا يكون بحرنا كبحر بيروت؟!

في نهاية أسبوع العسل ذاك الذي عاشرها فيه الجد يومياً، وأحياناً أكثر من مرة في اليوم - كما أخبرتني عمّتي في ما بعد - حان وقت الرحيل. ودّعها الجد بقبلة طويلة عند الباب، وأودعها سيارة صديقه الذي سيأخذها عبر طريق الشمال إلى طرابلس ثم إلى الساحل السوري. بعد نصف ساعة من سفرها تذكرت جدّتي المال الذي أعطاها إياه الجد، كانت قد خبّأته في محرمة تحت فرشة السرير، ولم يكن ثمة من مالٍ في البيت. لذلك فقد عادت السيارة أدراجها إلى غرفة الجدّ الصغيرة تحت درج البناية، وهرولت الجدّة لتجلب النقود داعيةً ربّها ألا يكون زوجها قد غادر

t.me/qurssan

الغرفة التي لا تملك مفاتيحها. لكن الباب لم يكن مقفلاً! هناك، وحالما فتحت الباب، رأت زوجها عارياً على السرير ذاته الذي بقي يعاشرها عليه لأسبوع كامل، كان يتلوّى بمتعة، وعلى هذا الجانب امرأة ممتلئة سمراء تمصّ له عضوه، وعلى وجهه تجلس أخرى ويبدو أنه يداعب عضوها بلسانه، كانت أصوات تأوهاتهم تصل إلى درج العمارة، والفتاتان تلهثان بكلمات باللهجة المصرية، ولم ينتبه الثلاثة لوجود الجدّة حتى راح صراخها يشقّ الفضاء، وانهالت على الأجساد العارية ضرباً بحقيبة يدها.

- رائحة عرق أجسامهم ممزوجة برائحة عطر ثقيل ماتزال في أنفي، كلّما رأيت وجهه تذكّرت تعابيره في اللحظة التي أبعدت العاهرة المصرية مؤخرتها عن وجهه، وشممت رائحة سائلها تضمّخ شفتيه.

قالت الجدة لابنتها في إحدى نوبات البوح الصريح.

منذ تلك اللحظة لم تسمح له بالاقتراب منها، وتحوّلت إلى امرأة أخرى تماماً، هي ما بقيت عليه الجدة إلى اليوم.

فكّرت هل كانت السينما المصرية هي سبب عشق جدّي للنساء المصريات؟! فالسينما تدخل في لاوعينا دون أن ندري، تحوّر أمزجتنا ورغباتنا، وكذلك أذواقنا. تربض مشاهدها هناك عميقاً، حيث لا ندري، وتنظّم معظم حياتنا القادمة.. السينما تجربة حياة يا صديقي.

لكن «أشرف» يقول إن الأمر لا يتعلق بالسينما، بل بحالات تجربتنا الأولى وذاكرتنا الأولى، وليس من داعٍ إلى إضفاء كل هذه القدسية الإلهية على فنٍّ صنعه الإنسان!

ذاك الصباح أيقظني اتصال «فاروق الشامي». هو في العادة لا يتصل بي في ذلك الوقت، وأنا لا أردّ على اتصالات الصباح المبكر، فالاتصال سيكون من العمل بالتأكيد. خصوصاً أني منذ أن وُظّفت في شركة «سوني إيريكسون» وأنا لا أذكر نفسي إلا في العمل، عمل، عمل. يمتصّون عمري وأوقاتي وجسدي. حتى

t.me/qurssan

أني كنت أعود مرات إلى البيت ولا أقوى على تقبيل «ياسمينا» كما يجب!

كانت «ياسمينا» ما تزال نائمة بقربي، ولم تكن تشبه البتّة «شارون ستون»، أقصد «كاترين ترامیل»، فيما صوت «فاروق» يأتيني بين النوم واليقظة ليقول لي: البقيّة بحياتك، أشرف عطاك عمره!

- أشرف!

هل كنت أحلم؟!

لا، أشرف!

صوت «فاروق» بعيد وأجشّ، مصطنع كمن يحاول أن يخفي حقيقة الصوت بنغمة مغايرة: أشرف أصابته سكتة قلبية عند الفجر ومات.. البقية بحياتك.

ثم غصّ صوته وأغلق السماعة. لم أعرف ما إن كنت أحلم أم لا، أنا أحلم بالتأكيد، كحول البارحة ما زال يمشي هادراً في دمي، ودماغي يدور في جمجمتي لاطماً العظم من الداخل، أنا أحلم بالتأكيد.

حين استيقظت من جديد تذكّرت صوت فاروق، هل كنت أحلم؟ أعدت الاتصال به والدوار ما زال يمسك برأسي ويهزّه.

- فاروق، هل صحيح أن أشرف مات؟!

- البقية بحياتك.

وأغلق السماعة من جديد!

إذاً، لم أكن أحلم! يا إلهي، لم أكن أحلم، «أشرف» رحل، كيف ستكون أيامي من دونه؟! كيف؟! في تلك اللحظة رفعت رأسي لسبب ما ونظرت من شبّاك شقتي باتجاه المول العالي المقابل، كان «أشرف» هناك واقفاً على سطح المول وينظر إليّ، من دون ألوان وبجناحين أبيضين كبيرين. لم أجد نفسي إلا وأنا أخرج إليه، حملتني أجنحتي البيضاء اللامرئية إليه، وهناك على سقف

t.me/qurssan

المول عانقته طويلاً، كان «كاسيل» وكنت أنا «داميل»، ملاكا برلين المدمّرة(21)، اللذان يرمقان الكنائس القديمة المخرّبة والبيوت المهدمة، سألته: لماذا تركتني وعدت إلى السماء يا كاسيل؟! كنّا قد قرّرنا أن نعيش في هذه الدنيا معاً.

- لأنك اخترت أن تبقى في الأسفل.

- وكيف سأعيش من دونك؟

- سأظل معك أينما كنت، وحين ستعود لتصبح رجلاً من جديد، وليس ملاكاً، ستحسّ بي ولن تراني، لن تراني بعينيك ولكنك ستراني بقلبك.

هناك من فوق المول كنا أنا و«كاسيل» نراقب المدينة تحتنا، تلك التي انتزعت الألوان منها، سوداء وبيضاء مدمّرة، ولكن ليس بفعل الحرب كما دُمّرت برلين، ولكن بجنون المال والسلطة. كنّا نراقب مدينتنا وكأننا نتأمل هذا العالم مدمّر الروح والقلب. متعانقين رحنا نراقب البحر. لوّح لنا الأطفال من الأسفل، وقلّة من الناس كذلك، أولئك الذين يملكون قلوباً صافية وسط هذا الجحيم البشري تمكّنهم من رؤية الملائكة. طرنا فوق البحر، لم يكن ثمّة سحاب لنخترقه، لكنّا داعبنا رادارات الإذاعة والتلفزيون. ظللنا طويلاً نحلّق معاً، وفي النهاية حين عدنا إلى سطح المول العالي، راح «كاسيل» يقرأ لي مرة تلو الأخرى قصيدة «بيتر هاندكه»:

حين كان الطفل طفلاً كان وقتاً للأسئلة، لماذا أنا هو أنا؟ ولماذا أنا لست أنت؟ لماذا أنا هنا ولست هناك؟

متى بدأ الزمن؟ وأين ينتهي الفضاء؟

أوليست الحياة تحت الشمس مجرد حلم؟

أوليس ما أراه وأسمعه وأشمّه مجرد سراب لعالم قبل العالم؟

هل الشر موجود حقاً، وهل هناك أناس أشرار؟

t.me/qurssan

كان صوته رخيماً يكاد يجعلني أغفو، ثم قلت له إنه من الرائع أن نعيش مع الأرواح، أن نكون شاهدين عليها للأبد، فقط على ذلك الشيء الروحي في رؤوس البشر، ولكني ضجرت من أن أكون كائناً روحياً، أحوم فقط في الأعلى.

- لكني سأبقى هنا، أفضّل أن أكون كائناً روحياً أعيش في الأعلى، وسأكون دوماً معك.

هل كان ما حدث حلماً أم حقيقة؟! وما هي الحقيقة أصلاً؟ أليس ما نحلم به حقيقة في رؤوسنا؟ ما نشاهده حقيقة في تخييلنا؟! حتى ذلك اليوم الذي ودّعني «أشرف» فيه ليذهب إلى سوريا ويجلب عروسه «سلاف» ويعود، هل كان حقيقة أم وهماً؟!

آه يا أشرف، آه يا شقيق روحي...

أنا أيضاً أريد امرأةً أبني معها ذاكرة، تماماً كما أردت أنت. النساء اللواتي عرفتهن لا يمكن أن أصنع معهن ذاكرة، يأتين ليلة أو في أحسن الأحوال ليلتين، ثلاث. نحن نحبّ كي نبني ذاكرة، كي يكون هناك شاهدٌ على ذاكرتنا.

- وهل تحبها؟!

سألته قبل أن يسافر ليجلب شريكة حياة إلى هنا.

- سأحبّها...

لم أفهم وقتذاك كيف يمكن للحب أن يكون قراراً!

ولكني الآن فهمت...

آه يا أشرف! يا رفيق روحي...

تلك التي تعيش على حافة الخطر، تعيش لذعة الحياة كأنها ستفقدها غداً، تتأرجح على الحدود بين الموت والحياة، تلك التي تختار اللحظة التي تنطلق فيها عكس التيار الهمجي القادم، وكان عليّ أن ألحقها حتى لو كلّفني الأمر حياتي، أيّ رجل في مكاني كان سيلحقها لو كلّفه الأمر أيضاً حياته، بل حياة كل من حوله.

t.me/qurssan

لم أعرف ليلتئذ أن «ياسمينا» تخطّط لأمرٍ مشابه. كانت قد دعت مجموعة من النساء والرجال الأغراب، لم أعرفهم قبلاً. في الصالة كان هناك رجل عربي وامرأته، ورجل وامرأة آسيويان، اعتقدت أنهما يابانيان، ورجل أوروبي مع امرأة ولم أعرف ما إن كانت زوجته، ولا من أيّ بلد هما، فحين وصلت كان الكحول قد بدأ يُذهب وعي معظمهم. الساقي الذي جلبته «ياسمينا» لهذه السهرة حضّر لي كوكتيلاً جديداً اسمه «تيكي بوكا بوكا»، وقال لي إنه خليط من تسعة أنواع من الكحول.

حالما أنهيت الكأس مع سيجاري الكوبي كانت الغرفة قد بدأت تتطوّح، سمعت ضحكة «ياسمينا» ورأيتها بين أحضان ذاك الرجل الأوروبي، وتشير لي بأن آتي. رميت بنفسي بينهما، وكانت الأجساد العارية أمامي تتداخل، وكنت أسمع أصوات الأهات والأنّات تتناهى إليّ كأنها قادمة من عالم آخر موازٍ، رائحة عرق أجسادٍ مثارة، رائحة مميزة لا تشبه روائح البشر العادية، فالأجساد المثارة وهي تمارس الجنس تفرز روائح عرق مختلفة.

استيقظت صباحاً وأنا عارٍ وغارق بقيئي، وثمة رائحة حادّة من الحموضة والكحول ودخان السجائر. لم يكن هناك من أحدٍ في الصالة، كأن شيئاً لم يحدث البارحة! الخدم يتحرّكون، أسمع أصوات حركتهم البعيدة، واجتاحت جسدي قشعريرة طاغية صعدت من أسفلي إلى فروة رأسي، لم أذكر كم امرأة ضاجعت البارحة ولا كم مرّة! أذكر حرارة أجساد متعانقة. رأسي يؤلمني، لا أعرف ما الذي صنعته؟! كيف سمحت لياسمينا أن توصلني إلى أن أفعل هذا؟! ولكن هل كنت أنا خارجه، هل كانت ذلك الآخر الخارج عني؟! الآخر الذي نخشاه هو ذاته الذي بداخلنا، يقبع جانباً ويراقب، وقد يخرج في أي لحظة. كانت «ياسمينا» هي آخري الذي أحاول قتله، آخري الذي بداخلي.

ما الذي ستقوله يا «أشرف» لو كنت موجوداً؟!

ما الذي ستقوله يا جدّي زوربا؟!

t.me/qurssan

كانت «ياسمينا» نائمة في غرفة النوم، عارية إلا من قميص شفّاف أرجواني اللون، تبدو كل تفاصيل جسدها من تحته، غارقة تماماً في نومٍ يشبه الغيبوبة. حين تمدّدت بجانبها تقلّصت فجأة لأغدو عقلة إصبع بحجم إصبع قدمها، تمشّيت بين شحمة أذنها الوارفة ورقبتها، وكان ثمة رطوبة لها رائحة مسكرة جعلتني أتطوّح نازلاً إلى الهضاب السفلى، أنا «ماركو»(22) الذي أحبَّها كما لم يحبّ رجل امرأة، يمكنني أن أقضي العمر تائهاً في فيء رموشها، أو ضائعاً في غابة شعرها السوداء اللانهائية، أو قرب شفتيها حين تهبّ نسائم أنفاسها. أنصب خيمتي بين نهديها وأتسلّق أحدهما لأنظر من فوقه إلى المحيط القريب. ولأنها كانت تفرش لي عانتها الناعمة وتغطيني بقماش أثوابها عندما يشتدّ البرد، سأنزلق قليلاً نحو كهفها الدافئ وأنام طوال الشتاء.. بل طول العمر.

أنا «ماركو»، كل ما عليّ الآن أن أمشي باتجاه أسفلها، أموت، فألج كهفها الرطب الدافئ، أدخلها ولا أخرج أبداً، أعيش أبداً هناك بين رائحة الشهوة، واحتراق العشق، وعبق الجنة.

كنت أشعر بأن مستنقع المال يشدّني إلى أسفل وأنا مستسلم له. أنزل إلى القاع دون أن آتي بحركة احتجاج، إلا أن أردّد في قلبي كل لحظة إن الحياة مجرّد خراء، وإننا كائنات مليئة بالخراء. هذا ما كنت أقوله كل لحظة ومدير الشركة قبالتي يشرح لي خطة العمل الجديدة. كنت قد بدأت أتسلّق سلّم الشركة بحماسة، وأشعر بأن ثمة طاقة خارجة عني تدفعني لأن أكون أكثر حماسة يوماً بعد يوم في التسلّق! حتى أتى الصباح الذي قال لي فيه ذاك «الكائن المليء بالخراء» وبابتسامة من يقدّم خدمةً جليلة للإنسانية:

- والآن يا سيد تموز، ستكون أصغر مدير إقليمي في المنطقة كلها.. تهانينا الحارة يا صديقي!

وأخرج سيجاراً ليضيّفني، اعتذرت وأخرجت علبة أهداني إياها «فاروق الشامي»، الذي أضحى ملجئي الوحيد هنا، واحتي في هذه الصحراء القاحلة بعد أن غادرها «أشرف كاسيل»!

t.me/qurssan

بهذه المناسبة بدأت أولى صفقاتي عصر ذلك اليوم، وكان الزبون الذي قبالتي، ذاك الذي لا يمكنه التنفّس جيداً بسبب أكوام الشحم المتراكمة على صدره ويتكئ بكرشه العارمة إلى الوراء، يحاول إقناعي أن أهبه كل موبايلات الشركة ليعطيني نسبةً أكبر بكثير من نسبتي، ولن تعرف الشركة أيّ شيء عن اتفاقنا ذاك، لأكون مطمئناً. كنت أريد أن أقوم من وراء مكتبي وأدعس في كرشه، أو أنتشل باروكة الشعر الفاخرة عن رأسه الأحمر السمين وأبدأ بضربه بها، وهو يصرخ ويستغيث. كنت لحظتئذ «هوارد بيل»(23) أصرخ وأصرخ دون صوت: «كلّ ما تفكّرون به يا سارقي القبور هو الحصول على المال». وإلى جانبي كان «ماكس شوماخر» يطوّح برأسه.

لكني أبرمت الصفقة معه! مع علمي بأن هذا سيسيء للتجار الأصغر الذين أتعامل معهم، للسمك الصغير في مستنقع المال، الذي بدأ السمك الكبير يلتهمه بشهيّة مفرطة كما هي العادة دائماً. لكن السمك الصغير لم يكن ليهبني ربع ما وهبتني إياه تلك السمكة العملاقة الحمراء، المملوءة بالخراء، والتي تلهث أمامي وهي توقّع على الصفقة.

- من أجل المال ننهش بعضنا، نكسّر ضلوع بعض، نمزّق وجوه بعضنا، نقفز على جثثنا ونمضي، من أجل المال ننهش لحم بعضنا كوحوش تتضوّر جوعاً في صحراء ثلجية.

- لكنك قبلت بأن تكون وحشاً في صحراء ثلجية.

كان «أشرف» سيقول لي ببرود وهو يحرّك قضيب البلاستيك الملوّن في ثلج زجاجة الفودكا بالتونيك. فيما كان «فاروق» يجلس صامتاً أمامي وأنا أقضّ عليه وجعي. وضعت كأس الويسكي على شفتي وشربته حتى آخره، قبل أن أطلب كاساً آخر.

- طبعاً قبلته، من أجل حلمي.

- لكنك تبتعد عنه شيئاً فشيئاً يا تموز، حلمك ذاك يبدو كل يوم

t.me/qurssan

أبعد من اليوم الذي يسبقه.

كان «أشرف» سيقول، فيما صمت «فاروق» ثانية.

كان «ماكس شوماخر» أمامي الآن، يحاول أن يهزّني كي أستيقظ، يحاول ألا يجعلني أغرق في هذا المستنقع الذي أنا عليه.

وجدتني أقول له: أولست جزءاً أيضاً من هذه المنظومة؟!

- لا..

- كاذب، أنت جزء أساسي منها.. مجرد أنك أتيت إلى هنا، تعمل هنا في حضن منظومة البزنيس، تعطيها من روحك وعقلك وحياتك، هذا يعني أنك جزء لا يتجزأ من المنظومة.

صمت «ماكس شوماخر» ونظر إليّ.

لكني لست «تموز»، من قال إنني هو، أنا «آرثر جينسين»، زعيم الشركة العملاقة «UBS» ووجدتني أصرخ بكل ما أوتيت من قوة، حتى أن كل من في البار كان يسمعني:

لا يوجد أمم ، لا يوجد شعوب ، لا يوجد عالم ثالث ولا غرب ، يوجد نظام مقدّس للأنظمة ، نظام واسع ، هائل ، متداخل ومتفاعل ، ومتعدّد الجنسيات من الدولارات ، دولارات بترولية ، دولارات إلكترونية ، دولارات متعددة الأشكال .

الشركات هي أمم العالم اليوم ، العالم هو البزنس.

هل فهمتني؟!

بقي «ماكس شوماخر» صامتاً وهو يبحلق فيّ، كانت عيناه تحملان مشاعر غريبة ومتناقضة من الذعر والاستغراب والشفقة والقرف والغضب، كلها معاً، وفي هذه اللحظة عاد «فاروق الشامي» من جديد. في حين قلت له هامساً:

- ولن أبقى خارج العالم يا ماكس.

أمي الحبيبة:

t.me/qurssan

ما الذي أفتقده كلما عبرت حدوداً ؟

كل لحظة من تلك اللحظات تتمزّ ق إلى اثنتين : كآبة تركتها خلفي ، وحماسة لدخول أراضٍ جديدة .

كتبت وأنا على حدود تشيلي في عام 1952.

أنا «غيفارا» الصغير، «فوستر» الذي يجوب ورفيقه «ألبيرتو» قارة أميركا اللاتينية على دراجة نارية مهترئة(24). نرتحل إلى أكثر الأماكن البعيدة للروح الإنسانية. كنت أحسّ بخبطات الحديد القاسي تضرب مؤخرتي، وأنا أرتجّ على الدراجة قاطعاً السهول والجبال والغابات من الأرجنتين إلى تشيلي فالبيرو وحتى سان باولو. أشعر بأن رئتيّ الضعيفتين المثقلتين بالربو الحاد تضيقان، ويضيق معهما الهواء، فيما تتسع رؤيتي في كل طريق نقطعه، وإثر كل لقاء مع ساكنٍ لإحدى تلك القرى.

تحدّثت مع فلّاحي تشيلي، أولئك الذين سلبهم المُلّاك أراضيهم، وشممت رائحة عرقهم الحادة. نمت إلى جانب عمّال المناجم في البيرو، واستيقظت مسودّ الوجه من الفحم. صافحت مرضى الجذام في مستشفى سان باولو، الذي تطوّعت للعمل فيه، وأحسست بنتوءات أصابعهم تحت جلدي وكذا برائحة الدواء الواخزة.

في النهاية وبعد شهور طويلة طويلة، مرت عليّ بساعتين، رفعت كأسي بين أصدقائي المرضى الذين يحتفلون بعيد ميلادي الرابع والعشرين وقلت:

الفواصل والحدود والجنسيات بين سكان أميركا غير حقيقية ، غير حقيقية أبداً، نحن جنس واحد مختلط ، من المكسيك وحتى
مضيق ماجلان .. سأحرّ ر نفسي من أي جنسية ، وسأشرب نخب البيرو وأميركا المتحدة .. سالو.

وشربت كأسي حتى القطرة الأخيرة، ثم خرجت مترنّحاً من صالة السينما! كنت أشعر بالدوار من كأس الشراب الذى احتسيته مع

t.me/qurssan

أصدقائي المرضى، أشعر بنشوة حملتني، فكانت قدماي لا تطأان الأرض. أشعر بالحنين إلى عالم لم أعرفه، قلبي تمسكه قبضة قاسية تؤلمه، وأتمنى لو أني لم أنهِ رحلتي تلك على دراجتي النارية، ولم أغادر سهول الحلم تلك!

صدمتني أشعة الشمس في بلاد أخرى!

أين أنا؟! من أنا؟ ألم أكن «غيفارا» قبل دقائق، «غيفارا» الذي بدأ حلمه برحلةٍ على دراجةٍ نارية، وانتهى بثورةٍ غيّرت وجه العالم إلى الأبد! من أنا؟!

خلال لحظة عدت «تمّوز»، «تمّوز» الذي بدأ حياته بحلمٍ عظيم لدراسة السينما، وانتهى آلة خرائية لجمع المال! «تموز» الذي كان يجب أن يكون هناك يجوب أماكن تصوير الأفلام العظيمة، لكنه هنا في صحراء قاحلة لم يتعرّف فيها إلا إلى البنايات الباذخة والمال والعاهرات! يقولون إن لكل مدينة وجوهها المختلفة، لكني لم أستطع العثور إلا على هذا الوجه منها!

كيف لي أن أشرب نخب هويّتي العالمية التي أضعتها؟! كيف لي أن أشرب نخب وطني الواحد غير المجزّأ وأحلم بالثورة وأنا خلدٌ تافه حقير!

- «أنا لست أنا بعد اليوم».

كنت أردّد وأنا أمشي كالمسرنم باتجاه البار.

أنا غريب عن نفسي.. من أنا؟!

كان «فاروق» ينتظرني هناك، ولم يستطع أن يفهم بالضبط ما الذي رحت ألهث به طيلة السهرة، ولماذا كنت أردّد طيلة الوقت:

هناك شيء واحد لاحظته في رحلتنا : العالم مليء بالظلم.

لكنه أحسّ ربما بأن رفيقه يغرق في هاوية سحيقة، وبأن كؤوس الـ «بلودي ميري Bloody Mary» التي لا أكفّ عن احتسائها الواحد تلو الآخر ستختتم ليلتي بالجنون.

t.me/qurssan

في بيت «فاروق» وحالما مدّدني على السرير ونزع عني حذائي، همست له:

- كيف نسيت حلمي هكذا؟!

- نم الآن وسنتكلم غداً.

- كيف أصبحت هكذا كومة من الخراء؟

- استرح الآن يا تموز.

- هل لاحظ أشرف ما لاحظته في رحلتنا؟!

- أشرف، الله يرحمه! ثم أي رحلة؟

- رحلتنا أنا وأشرف، أنا واثق بأنه لاحظ ما لاحظته، أنا واثق بأنه قال لي: العالم مليء بالظلم...

في الصباح استيقظت وقد نسيت معظم ما حدث البارحة. كنت قد قرّرت أن أشتري سيارة جديدة فاخرة بقسط عالٍ، ووقع اختياري على سيارة BMW رباعية الدفع، سوداء لمّاعة وفاتنة.

ليس لنا إلا أن نتضاجع مثل ثعالب الماء ، نثير الغبار على السجاد ، ونعيش في سعادة أبدية.

قالت «كاترين تراميل»(25)، التي كنت أناديها «ياسمينا»، في آخر يومٍ لنا معاً. كنت أشعر بأن الوقت اقترب وستتركني، فقد قضت معي كلّ ما يمكن أن تقضيه امرأة مثلها مع رجلٍ مثلي، جرّبنا كلّ شيء، أكلنا الكعكة حتى آخرها، ولم يتبقَّ لنا الآن إلا الفتات الجاف الذي لا يثير شهيّة أحد، بل حتى إنه ينسيك لذّة الكعكة التي كانها قبلاً. هذا ما أحسست بأنها ستقوله!

مارست معي الجنس للمرة الأخيرة وتركتني.. هكذا ببساطة!

لا، في الحقيقة لم يكن الأمر بهذه البساطة. كانت شجاراتنا في الشهور الأخيرة قد ازدادت كثيراً، وأنا أتحوّل إلى كائن كئيب مملّ، لا يكاد يتوقّف عن الشراب والشراب كبغل، ومن ثم يدخل

t.me/qurssan

في نوبات لا تنتهي من البكاء، حسب تعبير «ياسمينا». في آخر سهرة لنا رأيتها وهي تميل على رقبة رجل أعمال مصري معروف في زاوية البار، وتقهقه بطريقتها الخاصة التي تعني أنها تنسج مكيدة جديدة. كان جاكيته الأحمر اللامع وغليونه الأبنوسي مثيرين للتقزّز، كيس أحمر فخم من الخراء برائحة التنباك المعطّر. لسبب ما لم يعنِ الأمر لي شيئاً، ولم أشعر بالغيرة لسببٍ ما أيضاً، ولا أعرف لمَ سألتها عنه، فبدأ شجارٌ آخر من شجاراتنا. كنت أحسّ بأن «ياسمينا» بدأت تنتهي من حكاياتها معي.

لم أُرِد أن أسقط في وحدتي، فمنذ أن عرفتها لم أعرف امرأة أخرى غيرها! لا أعرف السبب الذي حدا بي إلى فعل ذلك! لكني لم أكن أستطيع أن أفكّر بامرأة غيرها، وأعتقد بأني لو تجرّأت وفعلت فلن أكون رجلاً أمام أي امرأة أخرى. «ياسمينا» لم تسلب قلبي، بل سجنت ذكورتي في جسدها الآسر!

ولأني كنت أعرف أنها ستتركني، فقد اتصلت بـ«فاروق الشامي» حالما صفقت الباب وراءها. همست له: أرجوك فاروق، خذني إلى أيّ مكان تريده، ولكن لا تتركني وحدي.

- هل تذهب إلى ذلك الفندق الذي حدّثتك عنه؟!

- ...

في تلك الليلة ذهبت مع «فاروق» إلى فندق «واحات الصحراء». كانت تلك المرة الأولى التي تطأ قدمي فيها مثل تلك الفنادق، وكان لديّ فضول أن أرى كيف من الممكن أن يضاجع المرء فتاة بـ50 درهماً، يعني 10 دولارات لا أكثر! لا تكفي ثمناً لسندويشة!

لو كان «أشرف» على قيد الحياة فلن يرضى أن يذهب معنا، سيقول لي: اذهب أنت واحكِ لي ما سيحدث.

- لا أذهب هناك للمضاجعة، بل لأكتشف ذاك العالم السفلي الغريب، لم أصدّق حين حدّثني فاروق بالأمر.

- ليكن، اذهب واكتشف ونقّب، ثم تعال وقصّ عليّ ما اكتشفت.

t.me/qurssan

وابتسم مشجّعاً.

لذلك فقد كنت على مدى وقت زيارتي أحاول أن أحفر ما يحدث في ذاكرتي، لأرويه له حين أعود إلى البيت، فـ«أشرف» لم يفارقني لحظة واحدة منذ أن غادر هذي الحياة بجسده الإنساني، وعاد إليّ بجسد الملاك «كاسيل»، وسيبقى معي إلى الوقت الذي سأقرّر أنا أيضاً أن أغادر هذه الحياة التافهة وأعود لأسكن معه في السماء التي فوق! هذا ما كنت متأكداً منه.

للحظة، وأنا في ذلك المكان الغريب، شعرت بأني ربما بدأت أتلمّس طريقي لصنع أول فيلم لي، فتفاصيل الفندق لا يمكن أن تدع من يدخله حيادياً تجاهها. السجاجيد الغامقة العتيقة، تلك التي تخرج الغبار حالما تطؤها القدم، لوحات المناظر الطبيعية العتيقة التي تلوّنت بالأصفر عبر الزمن المديد الذي تعلّقت فيه على تلك الجدران. أما الجدران فقد طلتها أنفاس الزبائن ودخان السجائر ولمسات الأيدي بتوشيحات بنّية اللون. السلّم الخشبي يئنّ عند كل خطوة أصعدها باتجاه الغرفة، ويجعلني أخاف أن ينهار خشبه المهترئ بي، ويترك للذاكرة أن تهاجمني بعشرات المشاهد من أفلام وضجيج ووجوه، لأول مرة لا يداهمني مشهد بعينه، كانت ذاكرتي مبهمة مشوّشة وتغصّ بالصور المتداخلة المتراكبة.

في صفّ طويل وقفت فتيات ملوّنات منوّعات، كان عليّ أن أختار واحدة منهن. «فاروق» يقف بجانبي وأحسّه مذهولاً، على الرغم من أنها لم تكن المرة الأولى التي يدخل فيها هذا العالم الغريب! لكنه عالم لا يمكن للمرء أن يعتاد عليه، عالم سفلي حيث الفتيات سبايا الموت بكل أشكاله. كانت هي تنظر إلى الأمام، إلى فراغ ما قبالتها. صبيّة سمراء بعينين خضراوين كغابة، ووجهٍ ما زال محتفظاً بعنفوان لا يزول، وكدمة من آثار مصّ طازج على رقبتها. لسببٍ ما اخترتها، شعرت بفضولٍ كبير تجاهها، وقادني إحساس بأنها ستحكي لي ما يحدث هنا بين هذه الجدران الغامضة.

t.me/qurssan

حالما دخلنا الغرفة استلقت على السرير ونظرت إلى السقف! السرير كان يئنّ من أصغر حركة عليه، والستائر الحمراء القانية التي تحيط به سميكة وثقيلة، وتبدو مثقلة بغبار قديم عشّش فيها. هناك ستائر حمراء تغلّف ثلاثة جدران من أربعة في الغرفة، تمتصّ الضوء الخافت أصلاً والقادم من لمبة شاحبة تتدلّى في منتصف سقف الغرفة. كادر المشهد الذي تخيّلته ضبابيّ، بضوءٍ خافِت تعكسه الستائر الحمراء، وصبية سمراء نزعت بنطال بيجاما رياضية كحلي اللون كانت ترتديه واستلقت على السرير. من الملاءات كانت تفوح رائحة عفنٍ وخزت أنفي. جلست على طرف السرير وسألتها:

- ما اسمك؟

- نسكورين.

- لم أنت هنا؟

لم تجبني. أمسكت يدها فاستقامت.

- سأدفع لك 100 درهم، فقط تحدّثي معي.

- لن يبقى لي منها شيء، لذلك لا تحاول أن تتعب نفسك.

كانت تحاول أن تتحدّث العربية بصعوبة.

- تتكلّمين الإنكليزية؟

- يأخذون معظم المبلغ.

تتكلّم إنكليزية رديئة للغاية وعربية أردأ منها.

- سأدفع لك ما تريدين، فقط حدّثيني.

لم يكن لدينا كثير من الوقت، و«نسكورين» بقيت صامتة ولم ترضَ أن تأمن لي وتحدّثني. حين أكملنا العشرين دقيقة، بدأ الحارس الذي يقف على الباب خارجاً بالطرق عليه، وخفت إن أنا تأخرت أكثر أن يقتحم باب الغرفة علينا!

t.me/qurssan

غادرت ذلك اليوم، لكني قررت أن أعود في اليوم الثاني آملاً ألا تكون مع زبون آخر.

لحسن حظي كانت «نسكورين» بين الفتيات المعروضات أمامي، حين عدت إلى فندق «واحات الصحراء» بعد عدّة أيام. بدا وجهها شاحباً للغاية وهي ترتدي ثوباً ضيّقاً ليلكيّ اللون ولمّاعاً، لكنها انتبهت إليّ حالما دخلت المكان، وسمّرت نظرها بي، وشعرت بأني لمحت نوعاً من الاسترخاء على وجهها!

هذه المرة وحالما أقفلنا باب الغرفة، جذبتني «نسكورين» إلى السرير، وقرّبت شفتيها من أذني قبل أن تهمس:

- هل تستطيع مساعدتي؟

- سأحاول.

همست لها.

- أعدك.. فقط احكي لي حكايتك.

- أرجوك ساعدني لأهرب من هنا!

في الحقيقة لم يكن ببالي أن أساعدها البتّة، كنت أريد أن أعرف قصّتها، قصة هذا الفندق سيّئ السمعة، وأن أُراكم تفاصيل ومشاهد وصوراً أكثر في مخيلتي كي أستخدمها في الفيلم الذي أفكّر بصنعه يوماً عن هذه العوالم الغامضة للدعارة الرخيصة.

لكن «نسكورين» صدّقتني، غريقة تعلّقت بقشّة مسوّسة مثلي. كانت تهمس لي بهيستيرية، مزيجاً من عربية وإنكليزية ولغة غريبة أخرى لم أفهم منها كلمة، ولكني أحسست بكلّ حرارتها. حدّثتني عن أنها أتت إلى هنا بعقد عمل لتعمل كنادلة في مطعم. ثمة شركة في بلادها تؤمّن عملاً للفتيات هنا، وكان يمكنها أن تنتقي بين الخدمة في البيوت، أو نادلة في مطعم، أو عاملة في مركز للتجميل. كانت تفكّر في أنها ستأتي لتخدم في بيت عائلة عربية تعرف ربّها وستعاملها كابنتها، كما أكّد الرجل الذي يعمل في شركة تصدير العاملات لأبيها مراراً وتكراراً. الأب بعد أن اقتنع

t.me/qurssan

بأن ابنته ستعمل لثلاث سنوات في مكان آمن ودافئ ونظيف، وافق على ذهابها، فهي ستجمع في السنوات الثلاث تلك ثروةً لا يمكنه أن يجمعها لو عاش ثلاث حيوات كحياته. لكنه اضطر أن يبيع قطعة من أرضه كي يدفع لشركة العمل قيمة «الفيزا» وإصدار جواز السفر الذي سيسمح لابنته ببدء غربتها الآمنة والمنتجة في تلك البلاد الغريبة والغامضة. بدأ الطرق على الباب، وبدا التوتر والخوف يجتاحان وجه «نسكورين»، فبدا أكثر وحشية مما كان. حين وصلت إلى هنا، أتوا بها مع مجموعة من الفتيات إلى هذا الفندق، أخذوا جوازات سفرهن، وسجنوهنّ. كان عليها أن تبقى لتعمل كعاهرة حتى تدفع كامل مصاريف السفر.

- سآتيك غداً.

- أرجوك ساعدني.. خلّصني مما أنا فيه.. اتصل بأبي هل يمكنك أن تتصل بأبي؟! لا يسمحون لنا باستخدام الهاتف...

- سأعود، لا تقلقي.

للمرة الأولى أحسّ بأن لدي وظيفة إنسانية ما، وعليّ أن أتمّمها. لم أستطع النوم يومذاك، «فاروق» خاف أن يشعروا بشيء مريب حين آتي لثلاث ليلات متتالية إلى الفندق، لكني كنت مصرّاً أن أذهب إليها، وفي الليلة الثالثة كانت «نسكورين» أيضاً بانتظاري.

وجهها مختلف عن الليلة الماضية، أكثر توتّراً وخوفاً، وعيونها معلّقة بي وبالزبائن الذين قبلي مخافة أن ينتقيها أحدهم. في آخر الجلسة، وقبل أن يدق الحارس الباب قلت لها: سأساعدك على الهرب من هنا. هل يمكنك الخروج؟!

- أبداً.

- سأجد طريقة لإخراجك.

في المساء أخبرت «فاروق» عمّا أفكر به، لكنه لم يتحمّس كثيراً للفكرة، بل قال لي: تعرف أن عقوبتنا ستكون قاسية لو فعلنا. هذه شبكات الدعارة والرقيق الأبيض لديها صلات غامضة.

t.me/qurssan

- إن تركتها هناك فسأشعر بأني تخلّيت عن آخر ملمح إنساني أملكه، أو من الممكن أنه بقي لدي، لا تتخيّل ما الذي يفعلونه بهن؟!

- أتخيّل...

بعد محاولات طويلة لإقناعه بفكرتي الجنونية قال فاروق:

- حسناً، سأستخدم كل قوتي لمساعدتك!

حلمت الليلة بأني أخذت جدّي «سهيل زوربا» في رحلة حول الأرض! كنّا نشبه رحّالة الأفلام، ثيابنا بلون كاكي باهت ونضع شملتين بيضاوين على رؤوسنا، نحمل حقائبنا العملاقة على ظهورنا ونضحك، نضحك... لم نكن مسرعين كما كان حال الثريّ الإنكليزي «فيلياس فوج» ومرافقه الذي يلحقه دوماً «جان باسبارتو»، وهما يجوبان العالم خلال ثمانين يوماً في رواية «جول فيرن»، بل على العكس كنّا نتذوّق العالم بتؤدة، نستمتع بطعم كل تفصيل منه، تماماً كما كنّا نرشف كؤوس العرق ونتلمّظ المازة معاً وبعناية في قريتي البعيدة.

حين استيقظت كانت ضحكة جدي ترنّ في أذني، عرفت لحظتئذ أن الوقت قد حان لأقوم بتلك الرحلة التي وعدته بها، بل التي وعدت نفسي أن أقوم بها من أجله.

سنجوب العالم معاً في رحلة من الخيال، سأريه العالم كله، تماماً كما فعل «فيلياس فوج»، بالسيارة والقطار والطائرة والسفينة، وسأستمتع برؤية وجهه وهو يندهش، وتقطر السعادة والدهشة من عينيه كما ماء المطر.

مضى يومي بسعادة، كنت أشعر بقلبي يخفق بحماسة كلّما فكّرت بتلك الرحلة التي سنقوم بها معاً: جدّي وأنا، وقرّرت أني سأتّصل به في المساء لأخبره بما قرّرت.

قبل المساء، ولم تكن الساعة قد بلغت السادسة بعد الظهر، رنّ موبايلي وكنت في اجتماع عمل، لكن شيئاً ما جعلني أجيب على

t.me/qurssan

هاتفي على غير العادة. كانت عمّتي، ومن بين شهقاتها المتلاحقة عرفت أن جدّي «سهيل زوربا» قد فارق الحياة منذ ساعة ونصف بجلطة مفاجئة أوقفت من فورها قلبه الجميل عن الخفقان!

آه يا جدي! من بقي لي بعدك؟! هل يعقل أن يكون العمر عبارة عن خسارات متلاحقة متوالية تكاد لا تتوقّف! كم مرة نحيا؟ وكم مرة نموت؟!

يقولون إننا نفقد 21 غراماً في لحظة الموت الحقيقية!(26)

هل فقدت 21 غراماً حين توقّف قلبك الجميل عن الخفقان؟!

أرى روحك الآن وهي تعلو عن جسدك في غرفتك الصغيرة في القرية. تطير قليلاً بين الجدران البيضاء، وتعمل على تحريك الستارة المقصّبة بشكل لا يمكن للكثيرين رؤيته. تتأمل الصورة المؤطّرة لك والجدّة فوق السرير، وتلقي نظرة أخيرة على ملصقات الأفلام القديمة التي تمتلئ الجدران بها، نجلاء فتحي تبتسم لك، رشدي أباظة أيضاً، ولربما لوّحت لك سعاد حسني، قبل أن تتخطّى النافذة وتخرج.

لكن إلى أين ستذهب روحك وقتئذٍ؟! وكم يساوي وزنها؟ 21 غراماً؟! كم فقدت، ومتى فقدت، وكم ذهب منك معها؟! 21 غراماً، وزن كومة من خمس نيكلات، وزن طائر، أو لوحٍ من شوكولا! ولأن لروحك يا جدّي خفّة لا تماثل أرواح الناس الباقية، سيكون وزن روحك أقّل، ستكون أخفّ وأكثر شفافية. لا يمكن أن يكون لروحك وزن يماثل وزن روح صاحب الشركة التي أعمل فيها مثلاً، ولا وزن روح «ساليري» معلّم اللغة الإنكليزية، ولا أرواح البشر هنا أولئك الذين لا يلحقون إلا المال. هؤلاء لا يشبهونك يا جدّي!

كم سأعيش مع روحك يا جدي!

كيف سأعيش مع روحك يا جدي؟!

استيقظت من جديد وكان الباب يقرع وطعم مالح في فمي.

t.me/qurssan

الباب يطرق ويطرق طاخ طاخ طاخ.. لا أعرف كيف قمت من سريري! وكانت «ياسمينا» في الباب ملهوفة.

- أين مفاتيحك؟

سألتها وعدت إلى سريري.

كانت المخدّة مليئة بالبلل، ووجهي مخيف في المرآة الكبيرة مقابل السرير! هالات سوداء تحت عيني ولحية نابتة مبعثرة، ويبدو أن الليل حلّ بالمدينة خارجاً!

دخلت «ياسمينا» إليّ، وقالت بعينين دامعتين:

- البقية بحياتك.. الله يرحم جدّك!

لم يكن الدور يليق بها!

لكن لحظتئذٍ، ولسببٍ أجهله، تحوّلت إلى «ماريون»، حبيبتي أنا «داميل» الذي تحوّلت من أجلها إلى إنسان وتركت نقاء السماء(27). قالت لي إن «الليلة ستشهد قمراً جديداً، ليلة ولا أصفى منها، لا دماء مراقة في حرب هذه المدينة!»، ثم عانقتني. أحسست بأنها امرأة أخرى، وكنت لأكون سعيداً لو أن هذا التحوّل حصل قبل فاجعتي، أو حصل في ظرف آخر. الآن لم يعد هناك من شيءٍ مهمّ، حتى لقائي بـ«ماريون» بعد طول انتظار لم يحرّك فيّ شيئاً.

- كيف حال كيس الخراء الأحمر؟!

- من هذا؟!

سألتني بوجه مستغرب، حتى أني كدت أصدقها. كان لهذه المرأة أن تكون أقدر ممثلة لو لم ترمِها الحياة هنا.

- صاحبك الجديد.

عانقتني وهي تطمئنني إلى أنها لم تبتعد عني بسبب رجل آخر، بل لأن علاقتنا كانت تحتاج إلى تجديد. وشممت رائحة كذبها

t.me/qurssan

الفاضح. لو لم أكن في مثل هذه الحالة لكنت تخيّلت ما حصل بينها وبين رجل الأعمال الجديد ذاك، لكني كنت أضعف وأكثر حطاماً من أن أخلق سيناريوهات حولها، بل حول أيّ كائن على هذه الأرض.

في اللحظة تلك كان «أشرف كاسيل» قبالتي يبتسم بحزن، يراقبني وأنا مع «ماريون» على السرير. لم يقل شيئاً، ابتسم لي فقط، وفي اللحظة التالية وجدتنا معاً أنا وهي على السرير، وشعرت برغبة كبيرة في ممارسة الحب. ربما أعانتني طاقة الحب هذه على استعادة روحي، تلك التي تمزّقت بين خساراتي.

رائحتك قاتلة، همست. لكن مع ذلك كنت بداخلها وهي كانت حولي. حين انتهينا وارتميت بجانبها لاهثاً، كان «كاسيل» قد اختفى، فهمست له وأنا متأكد من أنه يسمعني:

- أعرف الآن الذي لا يعرفه أيّ ملاك!

وغفوت.

...

هكذا راحت تمضي أيامي. لا أعرف متى أنام، ولا كيف أستيقظ. لم أذهب إلى العمل منذ فترة طويلة، حين تأتي «ياسمينا» أتكلّم معها، وحين لا تأتي أقضي الوقت مع «أشرف كاسيل» و«جدي» الذي جاء شبحه هو الآخر ليسكن معي في البيت. لم أعد أخرج مع «فاروق»، لذلك صار يمرّ عليّ كل يومين أو ثلاثة جالباً معه بعض الطعام وزجاجة ويسكي لنسهر معاً حتى الصباح. لم أعد أخلع البيجاما، ولم أعدّ أردّ على اتصالات الشركة، ليذهبوا كلّهم إلى الجحيم!

- لكن لن يمشي الحال هكذا يا تموز، يجب أن تذهب إلى الشركة، مرّ أكثر من شهرين على غيابك، أنا أعرف حجم الفقد الذي تشعر به، أفهم ذلك جيداً، ولكن إذا تركت الشركة هكذا، فلن تستطيع أن تكمل عيشك هنا، سيطردونك إن أصبحت بلا عمل ولا مال يا صديقي.

t.me/qurssan

كان «فاروق» محقاً.

- اذهب فقط إلى هناك، وليس بالضرورة أن تعمل حقاً، مديرك اتصل بي اليوم وهو مستاء للغاية. يريدك أن تتمّ صفقة طوكيو، لقد حاول تفهّم وضعك طيلة شهرين، وهذا أمر لا يفعله كثيرون.. اذهب غداً لتُسكته.

وهذا ما فعلته. في الصباح استحممت وخلعت البيجاما بعد زمن، ثم قدت سيارتي إلى الشركة.

في اليوم الذي يليه وصلت إلى مطار «طوكيو» لأبرم واحدة من أهمّ صفقات الشركة وأكبر صفقة في حياتي المهنية. ستجعلني تلك الصفقة من أصحاب الملايين. كل ما حدث في الأوقات الماضية، موت «جدي» وقبله «أشرف»، انهيار علاقتي مع «ياسمينا»، تجربتي مع «نسكورين»، آه كيف نسيت «نسكورين المسكينة»! ورغبتي الملحّة في استعادة حلمي، كل ذلك يجعلني دائخاً في الوقت، أشعر بالدوار دوماً وكأني لا أمشي على الأرض ثابتاً، أنا التائه بين كره البرجوازيين وتوق البذخ، بين حقيقة الشعوب وشهوة السلطة، بين معنى الحب وغواية النساء المتبرّجات.

حين وطأت أرض «طوكيو» كان الليل يسدل ستاره. أضواء الشوارع تضجّ بصخب قاتل، الواجهات، الناس، السيارات، الضجيج الذي يجعلك تكاد لا تسمع نفسك ولا أفكار دماغك! ضجيج المدن الكبرى في الليل يختلف عن ضجيجها في النهار، كأنها مدن أخرى! في النهار تحترق الأرواح بشكل جليّ لتسير عجلة الحياة، هكذا من دون رتوش كثيرة، بقباحة ووقاحة تسم الحضارة الإنسانية بالعموم. في الليل تحترق الأرواح كذلك، لكن متعة، بمداورة وخبث. كأن الليل يجعلها تهمّ إلى فنائها وهي سعيدة راضية بنومها الأبدي القادم.

لاقاني الشاب الذي من المفترض أن يصحبني في رحلتي داخل المدينة. لم تكن لديه عيون يابانية، بل كان شاباً أوروبياً بشعر

t.me/qurssan

أشقر وعيون زرقاء، لاحة مهملة لامبالية وبنطال بخصر واطئ يبان طرف سرواله الداخلي منه. قال لي: سأريك مدينة الليل «طوكيو»، لن تصدّق أن يكون هناك شيء في العالم يشبه ما يوجد هنا!

وضحكت، لا لشيء، إنما لأني كنت أعرف «طوكيو» جيداً! لم أزرها قبلاً، لكني أشعر بأني أعرفها ككفّ يدي، كقريتي البعيدة، «طوكيو» الليلية، إذ إني عشت ما عاشه «أوسكار» في حياته وفي موته عشرات المرات، في كل مرة أعدت فيها عيش فيلم enter the void (28). شعرت للحظة بأني منتشٍ وأنا أدور في الشوارع المضاءة كأنها في نهار ضاجٍّ، تمرّ ذكرياتي ومضات متلاحقة متتالية من ضوءٍ بارق، أتذكّر أمي، حادث السير الذي أودى بحياة والديّ، لا أميّز ما إن كنت في هذه اللحظة «أوسكار» أم «تموز»، أرى نفسي في مرحاض بار أعاشر فتاة غريبة بنظارة. أراقب أختي وهي تضاجع قوّادها، أراقب صالة التعرّي، حيث كانت هي نفسها تخلع قبل قليل آخر قطعة ملابس رقيقة تسترها أمام الزبائن المهلّلين لعريها الفاضح.

يحيط بي مروّجو المخدرات الصغار، أصدقائي في ليل «طوكيو» وهم يعرضون بضاعتهم: «...(29)» LSA, GHB, MDMA, Acid.

يقول لي أحدهم وهو يحمل عينة من الـDMT: جرّبه، أنصحك بتجربته، مفعوله لا يدوم إلا ستّ دقائق، لكنه يعطيك شعوراً بالخلود، إنها المواد ذاتها التي يفرزها دماغك في لحظة الموت!

أفكّر جديّاً أن أجرّبها، ليس من السهل أن يكون الشعور بالخلود متاحاً لك! ثم إنّ عليّ أن أشعر بما شعر به أحبّتي لحظة موتهم! سيكون الموت حينئذٍ هو رحلتي الأقصى! موت قبل الموت أو بعده!

وتغيم الصورة أمامي.

«طوكيو» الليلة في رأسي هي كل مدننا، ما يعيشه قاعها في الليل من دعارة ومخدرات وجريمة، تعيشه معظم مدننا في

t.me/qurssan

الخفاء، الفرق أن ما يحدث هنا يحدث في العلن وبشكل صادم. مروّج المخدرات الأكبر ذاك الذي التقاه «أوسكار»، والذي يحرص على إدخال إصبعه في مؤخرته، ويمسح غائطه برؤوسهم، كي يمشوا وهم موسومون برائحته المقرفة، يوجد منه الكثير في بلادنا، لكن ليس من الضروري أن يكونوا مروّجي مخدرات، قد يكونون رجال أعمال، مهندسين، أطباء، محامين، مثقفين... أياً كانت المهنة، فهم يَسِمون عبيدهم بروائحهم الكريهة.

أرأيتم كم أني أعرف «طوكيو» دون أن أزورها! الأفلام تطبع في دماغك تجارب لم تعشها، لكنك تحيا كأنك عشتها بالفعل! هذه هي المعجزة. وكم أشعر الآن بقرف كبير من كل شيء، قرف عارم اجتاح المنطقة كلها كسيل جبّار، واقتلع الناس والأماكن والبار الذي كنّا فيه من مكانه، واقتلعني أنا أيضاً! قرف عارم جعلني أفشل في إبرام الصفقة في صباح اليوم التالي، أو أتقصّد بالأحرى أن أفشل في إبرامها، لأعود إلى البيت وأنا أشعر بتخفّف جميل، ريشة خفيفة تطيّرها نسمة، وطعم يشبه حلاوة الثأر في دمي.

بالمناسبة سأقوم في يومٍ ما بعمل فيلم عن فتاة متعرّية في بارٍ للتعرّي: رأيتها يوماً تنزل متهادية على الدرج باتجاه القاعة، ترتدي ثوباً قصيراً بكشاكش دانتيلا، جوارب شبكية حمراء، وجزمة عالية لمّاعة تصل حتى الركبتين. كان الضجيج يصمّ الآذان، الموسيقا العالية وضحكات الزبائن وقرع الكؤوس، الضباب والحرّ ورائحة الكحول مدوّية في المكان. في المنتصف حيث ترتفع خشبة عليها ثلاثة أعمدة ثخينة سترقص ثلاث فتيات مثيرات بعد قليل هي واحدة منهن، وستخلع كلٌّ منهنّ ملابسها ببطء، ستتعرّى على مهل واثقة بأن عشرات العيون معلّقة بالسانتيمترات القليلة التي ستُكشف للتوّ من جسدها. حين تصل الفتاة التي أراقبها إلى الخشبة لن تتردّد في عمل حركات مبدئية مثيرة، كأن تزحف كلبوة مستثارة، أو تتمدّد على ظهرها كحيّة متلوّية! ثم حين ستمسك بعمود التعرّي ستدخل في عالم آخر، لا ترى فيه من حولها من الرجال رغم أنها تنظر في عيونهم، فالقرف الذي تحسّه ولعابهم يسيل أمامها لا يمكنها أن تلجمه لو

t.me/qurssan

رأتهم حقاً! لن تسمع صيحاتهم ولا تأوهاتهم المسعورة رغم أنها تثقّب الفضاء المحيط بها، فلو سمعتها فلن تستطيع أن تبقى ثانية واحدة أمام هذ القطيع من الخنازير الجائعة. ستتوحّد من نفسها، مع جسدها الذي تقشّر الثياب عنه قطعة تلو قطعة، حامية إياه بغنج من نهش الأيدي الممتدّة نحوها، متيقّنة بأن هذا الجسد هو الآن رأسمالها الوحيد، وكلّما ظهرت قطعة صغيرة من لحمه بات المستقبل أكثر أماناً، فلا أحد يعلم إلا الزمن كم سيبقى هذا الجسد رفيقاً بها، كم ستستطيع استخدامه كسلعة رائجة ورابحة، وكم سيصبر على تعرّيه كل ليلة قبل أن يخونها هو أيضاً.

وهي تدور حول العمود، تتعرّق، وتبدو الحبات اللامعة على جلدها الخمري، تدور وتدور كصوفيّ في حفلة زار، تطوّح شعرها الطويل مع دوران جسدها حول العمود، ويكاد الجسد يتعرّى تماماً، لا يبقى إلا قطعة قماش شفافة تستر وسطها، بعد أن عرّت ثدييها قبل قليل، ولم تسمع الجعير الذي انفجر حولها. في تلك اللحظة حين سترمي آخر قطعة قماش عن جسدها ستستيقظ، وتفكّر وهي تغادر القاعة مسرعة ناظرة في عيون القوّاد: من هو الذي رسا عليه المزاد الليلة، ذاك الذي دفع الثمن الأكبر ليقضي ليلته معها؟ وستتخيّل الساعات القادمة وتحلم بأنها انتهت، وبأنها تتمدّد في الصباح منهكة وحيدة في سريرها، وقد نفضت عنها كل روائحهم بعد حمّام طويل وساخن، وأعدّت لنفسها فنجاناً ساخناً من القهوة بالحليب سترتشف منه القليل قبل أن تغفو.

لم أفكّر بعد بنهاية للفيلم، لكن يخطر ببالي أن أقارن في مشهد أخير بين جسد تلك الفتاة المتعرّية كسلعة، وسلعٍ أخرى نملكها ونعرّيها بأنفسنا للشارين، دون أن ندري أننا نعرض ما نملكه كسلع في سوق المال: ذكاؤنا مثلاً، علمنا، مواهبنا، طاقاتنا، جمالنا، مشاعرنا، عواطفنا، وربما ذكرياتنا...

لم تمضِ ساعة على جلوسي في الشركة وحديثي مع المدير الغاضب، حتى انتهت المناقشة الحادة بيني وبينه إلى قتال ضارٍ طلب على إثره الشرطة لتأخذني. لم يستطع أن يفهم كيف

t.me/qurssan

أفسدت صفقة طوكيو، ولم يعد قادراً على تحمّل مزاجي السيّئ الذي غدا لا يطاق، حسب تعبيره! فمواهبي اللافتة في التسويق وحيازة الصفقات المربحة وتضخيم ثروة الشركة لم تعد كافية لتشفع لي ولتصرفاتي قليلة الأدب الوقحة وغير المبالية بتدرّج السلم الوظيفي، حسب تعبيره كذلك.

لكني في ذلك القتال بيننا أخرجت كل عنف روحي. فأنا أزداد اقتناعاً يوماً بعد يوم بأننا نقاتل طواحين هواء صارت مَرَدَة ووحوشاً عملاقة، كلّنا دونكيشوتات نسفح حيواتنا لقتال أشباح مخيّلاتنا، ثم نخرج غضباً متوحشاً ضد هذه الحياة الحقيرة التي جعلتنا كالهامسترات! يجب أن أقتل فكرة وجودي الاضطراري فيها، أعيش بعيداً عنها، عن جبروتها المقزّز، وأترك كل أشيائها ورائي.

في غرفة النظارة في قسم الشرطة سمعت صوتاً يهمس في أذني: **الأشياء التي تملكها تنتهي بامتلاكك . فقط حين نفقد كل شيء نكون أحراراً لفعل أي شيء.**

لا، لم يكن صوتاً في رأسي، بل كان «تايلر دِردن»(30) جالساً إلى جانبي على المقعد الخشبي، مهمل الشعر ويدخّن سيجارة رائحتها قوية. الفتى النادل الذي يبول في حساء الفطر قبل أن يقدّموه للزبائن من الطبقة المخملية كان بجانبي! الفتى الذي يرمقني بازدراء كأني أنتمي إليهم، أولئك المحشوون بالمال، ولا أنتمي إليه!

هي أنت.. يا ذاك الذي يحاول أن يكون «بيل غيتس» المال، «جون ترافولتا» الإثارة، «فيفالدي» الإبداع، «كازانوفا» العهر، «فيلليني» السينما، «غيفارا» النضال، و«أرماني» الموضة! ما أنت إلا غراب أسود لوّن ريشه الداكن بعشرات الألوان فلم تعد له أي هوية سوى القبح!

قرّب «تايلر دِردن» وجهه مني لئلا يسمعنا بقية المساجين وهمس: **«أنت لست سروالك الذي تلبسه ، لست ما تحويه محفظتك ، أنت كل فضلات العالم الراقصة والمغنية ، من كومة السماد العضوي**

t.me/qurssan

الرجال الذين تستعبدهم هم الرجال الذين تعتمد عليهم ، أنتم من دوننا لا شيء.

يا إلهي كم استمتعت بحجم الدهشة التي سكنت وجهه وجعلته أقرب إلى مخبول. ثم عدت لأكرر:

أنت لست سروالك الذي تلبسه ، لست ما تحويه محفظتك ، أنت كل فضلات العالم الراقصة والمغنية ، من كومة السماد العضوي نفسها أنت ...

قبل أن يأتي اليوم الذي تغيّرت فيه حياتي، حلمت أن أسافر إلى «باريس». لم أعد أحلم بـ«كوبا» منذ زمن طويل، وقد تخلّيت عن حلم الدراسة في «لندن» الباردة القَصِيّة.

بدت «باريس» لي في ذلك المساء كأنها تناديني، صبيّة سمراء في ظهيرة دافئة ترتدي ثوباً ملوّناً وقصيراً، وتتكئ على مقعدٍ خشبيّ على ضفة السين! كل ما حولها يلتمع: برج إيفيل، جادة الشانزيليزيه، والمولان روج... كل شيء في «باريس» يلتمع بحميميّة دافئة غير مبهرجة. هذا ما أحسسته، وهذا ما جعلني أسمع باريس تناديني، أنا «غيل» الهارب من سطحية حياته وابتذال حداثتها، لأضيع بعد منتصف الليل في شوارع «باريس» حقبة العشرينيات(31). «باريس» الذهبية في العشرينيات، مغناطيس الفن والجنون والحب. سأذهب إلى هنالك لأضيع في أزقتها الخلفية، أشرب النبيذ الأحمر مع أعضاء «الجيل الضائع» مع «فرنسيس فيتزجيرالد» وحبيبته «زيلدا»، أتشاجر مع «إرنست هيمنغواي»، أتناقش مع «غيرترود شتاين»، وأخطف حبيبة «بابلو بيكاسو» الفاتنة التي تناديني عيناها بشهوة، كل ذلك على أنغام «كول بورتر» Let's Do It, Let's Fall in Love. هناك سيكون للحياة معنى، سأخلق معنى لحياتي البائسة هناك. أليست الأماكن هي التي تخلق المعنى المستتر فيها؟! كنت ما أزال مقتنعاً بذلك، بل إن للأمكنة روحاً خاصة تخلقها وتميّزها عن غيرها. إن كنت أريد لمدينة عربية أن تكون بعد منتصف الليل كباريس العشرينيات، فمتى سيكون ذلك؟! ربما في «قاهرة» الثلاثينيات في صالون

t.me/qurssan

«مي زيادة» كل ثلاثاء! أو في «دمشق» الخمسينيات، أو «بيروت» الستينيات في أحد مقاهي شارع الحمرا. رغم أن أرواح تلك المدن تبدو اليوم كأنها تبدّلت بغيرها، فدمشق لم تعد دمشق، وبيروت لم تعد بيروت! جعلني «وودي آلن» أحلم كثيراً بباريس، بمعنى إبداعيّ مدوٍّ سأعيشه فيها، رغم أن ذاك المشهد الذي رأيته في ميدان التحرير في «القاهرة» قبل شهور كان فيلماً سينمائياً قائماً بحدّ ذاته، لا يحتاج إلى أيّ مونتاج، هكذا دون رتوش ولا إضاءة ولا «كاشت» فنّي! أحسست بأن «القاهرة» لحظتئذ عادت إلى ثلاثينياتها، استيقظت من سباتٍ معنويّ جمالي إبداعي، عادت إلى تألقها القديم الذي كانته قبل السبات، وخلقت معنى لحياتها التي كانت تتّجه باطّراد ونزق إلى نهاياتها.

إذاً، لمَ لا أذهب إلى «القاهرة» الآن؟! كم حلمت أن أكون معهم، أولئك الثائرون من رحم العفن، فكرت أن أكون معهم، كنت ذاك الشاب الذي يحمل العود ويغني للحرية، حين عادت أغاني «أحمد فؤاد نجم» و«الشيخ إمام» إلى الساحات، بعد عقود من سجنها في سهرات البيوت «المشبوهة». لا.. لا، بل كنت تلك التي تحمل كاميرتها وتصوّر جلال القيامة.. لا.. لا، كنت ذاك الذي يكتب اللافتات في خيمة تتوهّج بضوء الشمس المسلّط عليها، وجسدي يزخّ عرق الإثارة...

لكن هل ما أراه حقيقي؟ أم أنه أيضاً فيلم أشاهده؟! إنه بالتأكيد فيلم، إذ كيف تخرج شعوب المنطقة في تظاهرات ضد حكوماتها وأنظمتها؟! تونس ومصر واليمن! هذا ضرب من الخيال لا تبدعه إلا السينما!

لكن، بعد فترة وجيزة كان خبر اندلاع المظاهرات في بلدي صاعقةً لم أقم منها.

مضى عليّ عشر سنوات هنا وأنا أحارب نفسي، وها إن بركاناً في بلدي يستعر، حيث تُخلق هناك الآلاف من القصص، وأنا ما زلت هنا؟! المئات من الأفلام بانتظاري هناك لأوقظها من سباتها، قبلة مني ستوقظها، وأنا ما زلت هنا؟ ما الذي أفعله هنا؟! أحلم كل يوم

t.me/qurssan

أني في يومٍ ما سأقوم بصناعة أفلام عديدة، عن غرفة جدي، عن قلعتنا، عن حبيبته، عن طفولتي، عن مدرستي، عن العاهرات اللواتي عرفتهن، عن وعن.. ولم أصنع شيئاً حتى الآن! فيما آلاف الشباب والصبايا، غير الخبيرين، يصنعون السينما بعفوية وصدق هناك!

عشر سنوات مرّت كأنها عشرة أيام. أشعر بأني كنت فيها رجلين داخل رجل، رجل يسحبه مستنقع المال والشهوة عميقاً، ورجل يحارب موته بجمال الفن، كلما ازدادت قوة الفن أغرقه الموت في مستنقعه أكثر فأكثر. كم كانت شقية بائسة تلك الأفكار التي امتلكتني، أن أبيع روحي للشيطان، أنا «فاوست» التائه الذي حلم يوماً بالمال والنساء والبذخ وسلّم روحه هكذا ببساطة إلى «مفيستوفليس». ولكن أليست السينما تحريراً للأرواح، جعلها مجسّدة أمامنا، بدلاً من أن تبقى أسيرة عتمة أجسادنا. أليست هذه هي السينما؟!

رحت أشعر بأني ذلك المركز الصغير الدافئ، الذي تتقاطر حوله حياة هذا العالم، ما إن قرّرت، بعد حوالي سنة من اندلاع الجنون، أن أعود إلى «سوريا».

نعم، قرّرت العودة إلى بلدي، قلت ذلك لـ«جدّي زوربا» ولـ «أشرف كاسيل» تلك الليلة حين كنّا نسهر معاً: ثمة مئات الأفلام التي تنتظرني، وما عليّ إلا أن أغوص في بحرها. لكن قبل أن أسافر عليّ أن أفعل شيئاً واحداً كي أشعر بأنني استيقظت من كابوسي...

ولم ينبس أيٌّ منهما بكلمة!

في اليوم التالي اشتريت كاميرا «Sony HDR full HD Camcorder» جديدة، وسلّمت «فاروق» نسخة من مفتاح شقّتي دون أن أخبره بأني قد لا أعود.

- لكن، أسمع أن الأوضاع خطيرة في سوريا الآن، إلى أين أنت ذاهب؟! ألا تستطيع تأجيل زيارتك ريثما تهدأ الأوضاع؟!

t.me/qurssan

ولهذا سأذهب الآن. همست في قلبي فيما قلت له: لا تقلق، لن أتأخر، سأزور قبرَيْ جدّي وأشرف وأطمئن على عمّتي وأعود.

في المساء ذهبت وحدي إلى فندق «واحات الصحراء»، وبحثت عن «نسكورين» فلم أجدها! كنت متلهّفاً لأخبرها بأني عثرت على شخص سيبيعنا جواز سفر مزوّراً، سيكون اسمها «مطيعة العسلي» من «سوريا»، وستهرب معي إلى هناك، ومن «سوريا» يمكنها الهرب بأي اتجاه تريده، أو ببساطة أن تبقى في البلد وتبدأ حياتها الجديدة.

عدت في الليلة التالية ولم أجدها كذلك! بدأت أقلق، هل يكون أحد الزبائن قد آذاها؟ هل تكون قد قتلت نفسها حين اعتقدتني ذهبت دون عودة؟ أم هي مريضة ربما؟ قرّرت أن أغامر فسألت الرجل الواقف بقرب صف البنات عن صبية سمراء بشعر أسود طويل وعينين خضراوين انتقيتها مرّتين قبلاً وأريدها اليوم.

- لديها زبون آخر.

قال لي بجفاء غريب.

حينئذٍ قررّت أن أعود في الغد، ربما أحاول للمرة الأخيرة قبل سفري.

قبل أن أخرج من الباب، لحقتني فتاة بشعر مصبوغ بالأشقر وشفتين ضخمتين بأحمر شفاه فاقع وعلكة، تبدو بمبالغاتها كأنها خارجة للتو من فيلم مبتذل ورخيص. همست لي وهي تلهث:

- نسكورين هربت، قالت لي أن أقول لك إنها انتظرتك كثيراً لتعود كما وعدت، ولم تعد قادرة على الانتظار أكثر.

- كيف هربت؟

- خرجت إلى عيادة طبيب الإسعاف ولم يجدوها، هربت بالتأكيد...

ثم تلفّتت حولها بوجه شاحب، قبل أن تقول لي:

t.me/qurssan

- كانت متأكدة من أنك ستعود، ادعُ لها، ربما هي الآن في مكان أحسن بكثير.. كما كانت تحلم دوماً.

ثم هرولت على أطراف أصابعها وغابت في الممر الطويل القاتم.

منذ أن وطأت قدماي أرض بلدي بدأت سلسلة لا متناهية من الأفلام تتلاطم أمامي. سأعترف بأن ما دفعني للقدوم لم يكن حسّاً ثورياً ولا موقفاً سياسياً، ولا رغبة مني في المشاركة في صنع التاريخ، أنا أتيت هنا بكل بساطة كي أصنع أفلامي التي حلمت طويلاً بصنعها! فسوريا كانت بالنسبة لي في تلك الفترة أرض الأفلام!

كان من المفترض بـ«يوسف الماوردي» أن يلاقيني على أطراف «دمشق» نهاية الأوتستراد الجنوبي من جهة الغوطة الشرقية، حسبما اتفقنا قبلاً عبر إيميلاتنا الكثيرة والمشفّرة. غيّرنا مكان اللقاء عدة مرات، لأن حاجزاً للنظام انخلق للتو هنا، أو لأن شارعاً رئيسياً تمّ إغلاقه هناك، أو لأن اشتباكاً بين النظام ومقاتلي المعارضة اشتعل فجأة!

«يوسف» ثائر عتيد منذ اللحظة الأولى التي اندلعت فيها مظاهرات البلاد. ولأن معظم أصدقائه اعتقلوا أو اختفوا، وثلاثة منهم قتلوا برصاصات أثناء التظاهر، فقد قرّر أن يتخفّى، ثم غادر «دمشق» قبل فترة وجيزة، ليتابع عمله الثوري من الغوطة المحيطة المشتعلة، ثم من المناطق الثائرة الأخرى في البلاد، حسبما عبّر لي مراراً.

في اللحظة الأولى للقائنا لم أعرفه! رغم مرور أكثر من عشر سنوات على آخر لقاء بيننا إلا أني اعتقدت بأني سأعثر على تفاصيل عتيقة لوجهه بالتأكيد، أو على الأقل على بقايا تفاصيل أعرفها. فـ«يوسف» صديقي منذ الأسبوع الأول في الجامعة، وسنواتي الأربع التي قضيتها في الجامعة في «دمشق» أمضيتُها معه في بيت واحد استأجرناه على أطراف المزة شيخ سعد. كان شاباً ممتلئاً طويلاً، معالم وجهه منبسطة مفتوحة، شعره طويل دوماً، وتكاد لا تغادر سيجارة الحمرا الطويلة أعلى أذنه اليسرى

t.me/qurssan

يعشق «فيروز» و«زياد الرحباني»، ولا أذكره إلا وهو يرتدي بيريه حمراء عليها نجمة خماسية، وغرفته كانت متخمة دوماً بصور «غيفارا»، «فيروز»، و«الشيخ إمام»، ومكتبته تغصّ بالروايات، ولا يمكن أن يغيب صوت غناء ما من جهة غرفته، كاسيت وراء كاسيت تعلكهم المسجّلة العتيقة التي استسلمت في نهاية السنوات الأربع، لكنها لم تستسلم قبل أن تعلك آخر كاسيت كان في جوفها، تعطبه تماماً وهو الأقرب إلى قلب «يوسف»: غنائية أحمد العربي.

رغم أنه لم يعمل يوماً في السياسة إلا أن روحاً متمردة ما كانت دوماً في داخله، كان يمكنني أن أراها واضحة منذ اللحظة الأولى وهي تتململ داخل جدران جسده الضيق. لم يكن شكّي خائباً حين عدت وراسلته بعد أكثر من عشر سنوات طويلة لأقول له: أريد أن أعود إلى سوريا، حبيبتي التي استيقظت أخيراً بعد طول سبات.

في المكان الذي اتفقنا عليه انتظرته، كانت «دمشق» غريبة غريبة حدّ الألم، مقسّمة، مجزأة، منهكة، وتفوح منها روائح لا تشبهها البتّة. حين خرج شاب من سيارة بيك آب متوقفة في مكان قريب، واتجه نحوي، شعرت بقلبي ينبض. كان طويلاً نحيلاً كرمح، مقطّب الحاجبين دون تقطيب، وقد انحفر أخدود عميق وسط حاجبيه. يلفّ رأسه ورقبته بكفّية مرقّطة سوداء وبيضاء، وتبدو ثيابه معفّرة من العرق والغبار والقصص المتراكمة فيها. همس بقربي بصوت أبحّ: «تموز؟».

آه يا إلهي.. إنه يوسف، ما الذي فعلته السنوات بك يا صديقي؟

- لن أعرفك حتى لو قضيت ساعة أتأمل وجهك!

- وأنا ما كنت لأعرفك يا تموز، لست الرجل نفسه! عرفتك من حقيبتك وثيابك التي وصفتها لي. تبدو رجلاً مدلّلاً كقطة برجوازية سمينة وبيضاء في صالون محدثي نعمة! هههههه.. لا تقلق سأعيد نفضك وبرمجتك من جديد...

t.me/qurssan

ضحكنا ونحن نتعانق بشوقٍ شعرته فجأة تجاه «يوسف» وكل سنوات الجامعة المرتبطة به بكل تفاصيلها. وشممت رائحة غريبة تفوح منه!

وإلى سيارة البيك أب القريبة انطلقنا. سيارة منهكة مثقّبة بمئات الثقوب الصغيرة تستغيث. قربها هناك شابّان ينتظراننا، عرّفني «يوسف» إليهما: أبو صطيف، وأبو الذهب.

- الأسـماء الحركيـة أفضـل يـا تمـوز، يفضّل أن ننسـى الأسـماء الحقيقية هنا.. أهلاً بك في الجحيم يا صديقي.

اليوم حين أتذكر السنوات الثلاث التي مرّت عليّ في بلدي، لا يمكنني إلا أن أراها كفيلمٍ مؤلم مفجع على مدار الساعة. فيلم واحد يجمع كل ما يمكن أن أكون قد عشته في أفلام الحروب قبلاً، يُضاف إليه الكثير مما لم أره إلا هنا. لم أكن أملك شيئاً، أتيت مع كل المال الذي استطعت أن أسحبه من حسابي، وفي حقيبـة ظـهر مـهلهلة حملـت كـاميرتي الجـديدة Sony وأدوات تنظيفها، ميكروفون وستاند معدني، Hard disk، ولابتوب صغير كـي أحفـظ مـا أصوّره عليـهما، علبـة الفيلم الأرجوانيـة «مزرعـة الحيوانات»، طوطمي الذي لا يمكنني الاستغناء عنه، بعض قطع الثياب وزجاجة ماء بلاستيكية أعبّئها كلما فرغت.

قبل أن أترك بيت جدي بعد أسبوع من عودتي إليه، هتفت عمّتي حين ودّعتها:

- مجنون أنت يا بن أخي؟! ذاهب إلى الموت بقدميك، سيقتلونك.

- لن يقتلني أحد يا عمّتي.

- مبلى، ماذا تعرف أنت عن بلدك؟! صدِّقني يا بن أخي...

لكنـي ومنـذ اللحظـة التـي رميت فيـها «سـيم كـارت» موبـايلي، واستعضت عنه بـ«سيم كارت مضروب»، كما كان الرفاق يصفونه، يعني أنه كان لشهيد منهم أو لعسكري قتلوه، غاب صوت عمتي ولم أعد أتذكّر وجوده!

t.me/qurssan

منذ تلك اللحظة وحتى الآن مرّت ثلاث سنوات، كأنها ثلاثة عقود بكثافة ما حدث ووطأته. المشاهد تتلاحق أمامي كفيلم رعب هيتشكوكي لا يمكن التكهّن بنهايته! عمتي كان معها كل الحق، ماذا أعرف أنا عن بلدي؟! لا شيء، لم أكن أعرف شيئاً، كان لديّ شيء يشبه العمى الوطني! كيف يمكن أن ننتمي إلى وطنٍ دون أن نعرف شيئاً، مهما كان بسيطاً، أو على الأقل عن شركائنا في هذا الوطن! كانت تفاصيل الحياة الاجتماعية في أميركا اللاتينية، إيطاليا، المكسيك، روسيا، وغيرها من مدن الأفلام، حاضرة في ذاكرتي أكثر بكثير مما أعرف عن ناس وطني! لمَ لا تحتلّ أفلام سوريا ذاكرتي؟ هل لأني جزء منها، أم لأن صنّاعها كانوا يجاهدون كي ينتجوا فيلماً واحداً كل عدّة سنوات؟! تبدو السينما السورية مشاهد متقطّعة في ذاكرتي، جميلة ومؤثرة لكنها مجرّد مشاهد متفرّقة وصور!

منذ اللحظة التي صعدت فيها سيارة البيك أب مع «يوسف» ورفاقه، وأنا أتنقل معهم من بلدة إلى أخرى ومن مدينة إلى أخرى، أحمل كاميرتي وأصوّر كل ما يمكنني أن أصوّره، أتبدّل، أتحوّل. حرصت طيلة الوقت ألا أظهر ما الذي يعنيني حقاً، فكيف لي أن أقول لهم هكذا ببساطة: أتيت لأصوّر أفلامي التي حلمت بها، ولم آتِ لأشارككم ثورتكم يا رفاقي!

لم أُظهر بالطبع أيّ ملمح من ملامح أفكاري هذه لأحد، وخاصة لـ«يوسف» الذي بدا لي مصرّاً على الهرولة، بهمّة ودون توقف، في عمق نفقٍ طويل لا نهاية له ولا خروج منه أبداً!

لذلك فقد لبست الكفّيات والفيلد العسكري، ربطت علم الثورة في يدي وعلى جبيني، قفزت في المظاهرات الكبيرة التي كانت تخرج ليلاً على أنغام الأغاني الثورية، شتمت النظام، هلّلت للثوار، ولم أناقش رؤيتي الرافضة لتغيّر مسار الثورة باتجاه السلاح. صمتّ فقط وأنا أقبض على كاميراتي طيلة الوقت، وأحنّط كل لحظة اعتقدت بأنها ستلهمني شيئاً، كل مشهد، كل حركة، كل حوار، كل نأمة قد تكون قطعة هامشية ما من فيلم سأبدعه! لكني سأكذب على نفسي إذا قلت بأني لم أصبح جزءاً ممّا حولي بشكل

t.me/qurssan

من الأشكال، جزءاً من كل هذا الطوفان، طوفان الألم، الموت، الغضب، والحقد الذي راح يستوطن قلبي تجاه حربٍ أرى آثارها المدمّرة من حولي كل يوم.

في ريف حماة قطعت نهر «النونج» الأفعواني من فيتنام باتجاه كمبوديا، وراقبت، أنا النقيب «ويلارد»، الهيلوكبترات الأمريكية التي تقصف وتحرق وتبيد الأمكنة المحلّية(32). ثمة تغيير بسيط فحسب أحسسته هنا، فنهر «النونج» كان اسمه نهر «العاصي»، والهيلوكبترات التي تقصفنا لم تكن أمريكية، إنما كانت هيلوكبترات النظام ترمي بقذائفها على البيوت والحقول والساحات والمدارس والمشافي.. سطح النهر كان مليئاً بجثث طافية يحملها التيار بعيداً، من يرى الصورة من بعيد يعتقد أن قطع الثياب الطافية للجثث ما هي إلا طوّافات خشبية مليئة بورود ملونة!

هل كان العقيد الذي يجلس مع جنوده في الهيلوكبتر التي فوقنا يسمع هو الآخر موسيقا «فاغنر»؟! بالتأكيد نعم، فأنا أكاد أسمع أنغامها صارخة مهيبة، رغم هدير القذائف فوق رؤوسنا، تغطّي على صوت الموت!

يصرخ ذاك العقيد بجنوده الآن ومن فوق:

- احرقوا كل شيء، احرقوا كل شيء حتى الماء...

يجيب الجندي رئيسه صارخاً: إنه لأمرٌ ممتع يا سيدي!

فيردّ رئيسه مقهقهاً: كم أعشق رائحة البارود، إنها رائحة النصر!

هذا الحوار يحصل بالتأكيد فوق، أسمعه وأنا أتنقل مع الرفاق في سيارة البيك أب بين شوارع حماة المحترقة، نراوغ الانفجارات واحتمالات الموت. أشخص بكاميرتي وأصوّر، أكاد أقتنع بأن من يقوم بما يقوم به في سماء حماة، ذاك الذي في يحوم بالهيلوكبتر جيئة وذهاباً، هو مستمتع بالتأكيد ويعشق رائحة البارود ولحم البشر المحروق وغبار الحجارة والأسمنت الذي يصل إلى أنفه ويكمل صعوده إلى السماء!

t.me/qurssan

مرّ وقت طويل لم أذكر فيه دبيّ ولا حياتي السابقة أبداً، حتى أن طيفَيْ «جدّي زوربا» و«أشرف كاسيل» لم يزوراني منذ وقت طويل.

البارحة، وعلى سطح بيتٍ مهجور في مدينة «إعزاز» في ريف حلب، كنت أستلقي بعد يومٍ حافل، رائحة البارود قاتلة من حولنا، فقد مرّ يوم مكثّف من القصف على المنطقة، وثمة عشرات العوائل التي انطلقت هاربة باتجاه الحدود الشمالية مع تركيا.

«يوسف» يستلقي قريباً مني وهو يتوسّد حذاءه. شعره مشعّث طويل وكذا ذقنه المهملة أيضاً، وتخيّلت أن شعري ولحيتي على الشاكلة ذاتها بالتأكيد، فقد مرّت أسابيع لم أنظر إلى وجهي في المرآة.

عرفت من صوت شخير «يوسف» العالي أنه غفا وهو يحتضن الرشّاش، فقد قرّر «يوسف» قبل شهرين أنه سيشارك في القتال! لم أعرف ما إن كان قد شعر بالهلع الذي خرج من عيني حين أمسكت يده وهمست: «لا يا صديقي، أنت ثائر سلمي.. بلاه للسلاح. اتركه لغيرك، غيرك الذي لا يعرف طرقاً أخرى للثورة!».

- وهل من طرق أخرى تراها من حولك في هذا الجحيم؟!

- ...

- خلاص يا تموز، ابقَ أنت مع كاميرتك واتركني لسلاحي.

بانتظار الطائرات الحربية القادمة من جديد، استلقينا على سطح ذلك البيت المهجور. التعب العميق ذاك الذي يصل حارقاً إلى الروح، ويجعلها غير قادرة على الحركة، هو ما كنت أشعر به. حين لا يعود لديك أي ذرّة من الطاقة لتحرّك أصبعك أو ترفّ بعينك.

الحرّ الصيفي قاتل، وثمة مجموعة من التفاحات القديمة المتروكة منذ زمن طويل قربنا. حاولت أن أبحث عن جزء قابل للأكل منها، لكنها كانت متهالكة تماماً، ورائحة عفن كحولي واخزة تخرج منها. للحظة تذكّرت رائحة الويسكي! لا أعرف ما الذي

t.me/qurssair

جعل رائحة كحول خارجة من كومة تفّاح متعفّن تذكّرني برائحة الويسكي العذبة! لكن هذا ما كان، وتلاحقت مشاهد متواترة لحياتي السابقة في «دبيّ».

تذكرت «فاروق الشامي» الذي لم أتواصل معه بعد سفري! ربما اعتقد أنني متّ. تذكرت طعم السيجار الكوبي ولذعة الويسكي، تذكّرت ملمس جسد المرأة، ملمس من عالم آخر لا ينتمي إلى عالمنا هنا! هنا لا توجد نساء، وإن وجدن بالمصادفة، فهن متلحّفات بطبقات من الثياب لا تبان منها إلا العيون والأكفّ، مما يجعلهن أقرب إلى كائنات غريبة لا جنس لها. حتى أنني لم أكن أستطيع أن أتنسّم ولو شيئاً قليلاً من رائحتهن الأنثوية! النشوات الجنسية العارمة قبلاً تحوّلت اليوم إلى احتلامات متكرّرة، أو إلى تفريغ سريع على طرف أجمة ما، أو في تواليت مرتجل ليس له باب، وإنما غطاء قماشي مسدّل على بابه، حتى أن أيّ واحدٍ من الممكن أن يرفعه بيده قليلاً ليراك تتبرّز أو تتبوّل أو تمسك بعضوك لاهثاً. في معظم البيوت التي هجرها سكانها هنا، وهربوا من جحيم المعارك، ليس للجدران طلاء، بل هي صفوف من بلوكات مثقّبة وواضحة برماديتها الباهتة، ليس للحمّامات أبواب، وليس للنوافذ زجاج! كنّا نعيش هنا في فيلم طويل، طويل بالأسود والأبيض.

منذ مدة لا يمكنني تحديدها مرّت سيارة بيك آب غريبة مليئة بأجساد ملونة تترنّح مع ترنّح السيارة. حين دقّقت قليلاً، تبيّنت لي أجساد أكثر من اثنتي عشرة أو ثلاث عشرة امرأة مع معاولهن ذاهبات للعمل في الجهة الآخرى من المدينة، حيث ما زالت بعض الحقول قادرة على إعطاء الخير! السيارة المترنّحة بالألوان الفرحة، وجوه النسوة المخملية من شمس الظهيرة، ورائحة عرق أنثوي ثاقب وصلت إليّ وأدارت رأسي... يا إلهي! كانت بقعة لون صارخة تمر بسرعة وسط فيلم الأسود والأبيض الذي نعيشه! هذا بالضبط ما رأيته، ولا يمكن لهذا المشهد أن يغادر مخيّلتي. ها أنا ذا أنتظر كل يوم أن تسمح حواجز الثوار لسيارات أخرى تحمل العاملات بالعبور من مناطقنا، علّ بقعة لون جديدة تخترق

t.me/qurssan

رمادية فيلمنا الذابل!

لكن الانتظار لم يكن دوماً مثيراً وشهيّاً كهذا الانتظار، بل كان علينا أن ننتظر الطائرات أيضاً لتعود وترمي القذائف مجدّداً على المنطقة. في انتظار طائرات اليوم خاطبني رجل مسلّح، كان على رأس مجموعة من المسلّحين مرّت بجانبي، ورآني أنظّف كاميرتي وأبكي، أبكي دون أن أستطيع وقف نشيجي العالي. للحظة وأنا أرفع رأسي لأنظر في وجهه، رأيت العقيد «والتر كورتز»(33) مموّجاً من بين دموعي، لكن قريباً جداً وبملامح وجه مهووس، وسمعت صوته ذاته! حولنا تناثرت جثث مشلّحة مبقورة البطون، وأشلاء ورائحة الموت، ووحده الذباب لم يجد طريقه بعد ليحتلّ المكان.

صرخ بي العقيد «كورتز»: **لا يمكن للكلمات أن تصف ما هو الضروري لأولئك الذين لا يعلمون ما هو الرعب ! للرعب وجه ، وينبغي أن تكون صديقاً له.**

لكني استمررت في البكاء، كان مشهد المجزرة أفظع من أن أحتمله، ونشيجي كنشيج طفلٍ أضاع أمّه وسط الزحام!

حينئذٍ، هزّني العقيد غاضباً وصاح:

- في الحرب يجب أن يكون الرعب والإرهاب الأخلاقي صديقيك، وإلا فسيكونان عدوّيك، وهنا ستكون النهاية.. قم، قم هيا.. تبكي كالنساء! أمامنا الكثير لنفعله بعد، إن لم نسرع فستحصل مئات المجازر المشابهة لهذه.

ثم حمل سلاحه وغادر المكان مع جنوده!

في مملكة الجنون الوحشية هذه، هل هناك حقاً إله وقاتل في داخل كلٍّ منّا؟ ذاك الذي يقصفنا من فوق، وأولئك المقاتلون أمامي، هل هناك في داخل كلٍّ منهم حقاً رجلان: واحد يقتل كوحش، وواحد يحبّ كعاشق أثيري؟!

كيف يمكنني أن أصادق الرعب والإرهاب الأخلاقي وأنا فنان

t.me/qurssan

بكـاميرا! أتـيت لألتقـط أفلامـي مـن عـيون النـاس المتحـرّرين وصرخات الثائرين، وإذا بي أُرمى في جحيم لا يمكنني الخروج منه، لا يمكنني أن أتركه هكذا ببساطة وأعاود حياتي الطبيعية التي كانت قبلاً، والتي للسخرية لم أكن أراها طبيعية كذلك!

من يعش يوماً واحداً هنا، أو مشهداً واحداً، فلن يمكنه أبداً أن يعود كما كان قبل قدومه. هنا في فيلم الرعب هذا، وسط حرب بشعة حدّ الفجيعة، تنعطف المصائر والأقدار إلى الأبد!

فـي مـدينة «حمـص» لـم أستطع إلا رؤيـة «طارق النويـري»، ذاك الفتى الذي أشهر كاميراته يوماً وراح يدور في شوارع «بيروت» المحترقـة مع بـداية حربـها الأهليـة، ويـراقب تلك الحـرب التـي قسّمت «بيروت» إلى شطرين: غربية وشرقية، كما يشطر عاشقان جسد حبيبتهما كي يتقاسماها(34).

كم كانت «حمص» تشبه «بيروت» وقتذاك، بجسدٍ أنثويّ مليءٍ بـالحياة مزّقتـه القـذائف والـدمار والحقد! وكم كنت ذاك الفتى «طارق النويري»، أتلصّص من شبّاك مخبئي كما تلصّص من شبّاك مدرسته على المسلّحين الملثّمين وهم يوزّعون الموت بأسلحتهم. في «حمص» كنت هو، أراقب المدينة التي قسّمها شارع الستّين إلى قسمين، واحد بيد النظام، وواحد بيد الثوار، وأراقب أولئك الناس الفدائيين الذين يحاولون قطع الشارع/ الحدود ليرتموا على بعد أمتار وقد استقرّت رصاصات القنّاص معظم الوقت في رؤوسهم. براعـة لا يمكنـك إلا الإعجـاب بـدقّة صـانعها وتمتّعـه بمهنته الغريبة: قنص الرؤوس!

مع الزمـن صـرت أتخـيّل قصـة كلٍّ منهم وأصوّر مشاهدها فـي رأسي. لماذا حاول ذلك الشاب اجتياز الحدود؟ كان لديه حبيبة في الطرف الآخر، بالتأكيد، وأراد أن يراها، فشَوقُ المحبّين غلّاب وأقوى من جيوش جرّارة. لذلك فقد كانت تموّجات طاقة حُبٍّ حمـراء تخـرج مـن جسـده الممـدّد علـى الأسـفلت وتصـل إلـى كاميرتي. أما ذاك العجوز فقد حاول الانتحار من أجل ربطتَي خبز جلبهما من الجـانب الذي يسيطر عليه النظام، حيث يستطيع

t.me/qurssan

الناس أكل الخبز! وذاك الطفل وأمّه، كانا ذاهبين ليزورا الخالة المحتضرة في الجانب الآخر!

القـنّاص يختبـئ وراء سـواتر ترابيـة علـى سـطح بنايـة عاليـة، وكاميرتي تجرّب عبثاً طيلة الوقت أن تقنص صورة له أو فيديو سريع. في المرّة الأخيرة نجونا، هي وأنا، بأعجوبة من رصاصة كانت ستستقر في رأسينا!

حين تعيش في السينما لا يمكنك أن تكره شخصية ما، حتى تلك الشخصيات التي أُعدّت لتكون شخصيات سلبية بالمطلق، عليك أن تفهمها، أن تحبّها، كي تصنع من فيلمك قطعة فنية! حاولت جاهداً أن أكرّر هذه الحكمة على نفسي، أن أقنع ذاتي مراراً بها، وكم كان هذا الشيء صعباً، بل محالاً في بعض المواقف.

ربما هذا ما جعلني أتقمّص روح «نوال مروان»(35) وأرى بعينيها بشـاعة الحـرب وهـي تنتقـل مـن جيـلٍ إلـى جيـل، ذاكـرة تسـم الجينات وليس العقول فحسب، ذاكرة تكاد لا تتوقّف عند جيل وحده، بل تتقدّم كسيلٍ هادر، يحمل معه كل الأوساخ والأتربة في طريقه، عبر الزمن، من عقول الآباء إلى عقول الأبناء دون توقّف.

«نـوال مـروان» ركعـت وهـي تشـهد بـأمّ عينـها مقتـل الأبريـاء واحتراق أمٍّ لمجرد كونها من دينٍ مختلف عن دين القتَلة. تُجلَد بوجوه الضحايا، لأنها استطاعت النجاة بسبب دينها، تجلد برائحة شـواء اللحـم البشـري، بـذاكرة مـوتٍ وقتـل واغتصـاب، أنا التـي تتعـاطف مـع أعـداء دينها من المعسكر الآخر، في حربٍ أهليـة شـرسة بشـعة، وكمـا كـانت «نـوال مـروان» تعتقد بكل غباء بأن الحفاظ على السلام يمكن أن يكون عبر الكلمات والغناء.. وكم كانت غبية! مثلما كنت أنا غبياً. أتى يوم واقتنعت بأن الجمال لا يمكن له أن يحيا وسط البشاعة هذه كلّها، سيموت من الفجيعة أو سيقتلونه!

كانت هناك جثث متراكمة لرجال النظام، مرميّة على طرف قطعة عسكرية، وقد بدأ الذباب يتكاثف عليها، ورائحتها تسيطر على

t.me/qurssan

المكان. فقلت لهم: لندفنها، حرام.. هم بشر في النهاية وعبيد مأمورون يفعلون ما يُملى عليهم، لديهم أهل وأحباب وأمهات سيُفجَعن...

صرخ بي أحدهم: بشر؟! كل الذين قتلوهم.. مئات، مئات الأطفال والنساء والشيوخ.. دمّروا البلد وتقول لي حرام.. حرام أن يبقى واحد منهم على قيد الحياة!

وأشهرَ صورة صغيرة ملوّنة لطفلين، كان قد خبّأها في جيب سترته العسكرية، وصاح بصوت مخنوق: وهؤلاء ما ذنبهم؟!

لا أعرف لمَ أخذتُ الصورة وتأملتها طويلاً. صغيران بألوان حادّة وفلتر قوي أوشك على جعل ملامح وجهيهما تختفي! يحتضنان كتلتين ضخمتين بشعرٍ كثيف، من المفترض أن تكونا لعبتين، ويبتسمان للكاميرا بعيون مشدوهة!

أنا أشهد بأن الموت لن يكون نهاية القصة ، بل قد يكون مجرد البداية . أما الحرب فما هي إلا سلسلة من الأعمال الانتقامية الوحشية يحكمها منطق لا يرحم !

لسبب ما خرج إليّ «نيتشه» بوجهٍ موارب، كما رأيته يوماً في صورةٍ من فيلم وثائقي عنه، ينظر إلى مكان ما بجانبي، وقال لي:

- احذر، وأنت تحارب الوحوش، أن تصبح وحشاً مثلهم!

في «ريف دمشق» تنقّلت مع سريّة «برافو مشاة» بمرافقة الجنود الجدد، من كانوا يُسَمَّون: اللحم الطري. أنا «كريس تايلور» أدور في أدغال فيتنام التي تغصّ بالأخضر والجمال. مشهد متناقض تماماً مع كل ما نفعله فيها!(36) تأكلني أسراب النمل الأحمر، وكان «يوسف» الجندي المجهول بخوذة ملوّثة يمشي منهكاً بجانبي مع جنود مجهولين آخرين، فقراء لا أحد يهتمّ بهم: وقود الحروب. الفقراء وحدهم من يتحمّلون وسخ الإهانات وقذارة حروب المال والسلطة والجشع. يحوّلوننا إلى قتَلة، وحوش، أدوات للموت، ماكينات لحصاد الأرواح.

t.me/qurssan

في سرية «برافو مشاة» أحسست لأول مرة بأني أملك مصيراً مشتركاً مع أصدقائي المجهولين، ولم يعد بإمكاني أن أتخيّل أنني عشت في زمنٍ مضى، وليس ببعيد، حياة مغايرة تماماً، متناقضة إلى درجة الهزء، في أحضان نساءٍ متبرّجات في فنادق فخمة، كأني كنت كائناً شبيهاً بالبشر، والآن أصبحت بشرياً إلى الحدّ الذي أكاد أتحوّل فيه إلى وحش!

لأول مرة أفكّر: ماذا لو فقدت «يوسف» في معركة ما؟! ما الذي سيحدث لي؟ كنت أشعر بأنه غدا جزءاً مني، كما كان «أشرف الورّاق» في يومٍ ما جزءاً مني وفقدته. «يوسف» هو الجزء القوي مني، المصرّ، المؤمن حدّ الولع بقضيته، المحارب، الثابت! لا يمكنني أن أتصوّر أني سأفقده. حين كان يهرول إليّ بعد معركةٍ ما، أو بعد قصف أو اشتباك، يتلمّسني بيديه الملطّختين وبعينيه الخائفتين المحبّتين ويصرخ: هل أنت بخير تموز؟!

ها أنا ذا يوماً بعد يوم أكافح من أجل البقاء، لا لأجل قوتي فحسب بل لسلامة عقلي، فقد أضحت الفشاوة كاملة أمام عيني، ولم يعد لديّ طاقة لفعل شيء، وأنا في معظم الأوقات لا أعرف ما هو الصواب وما هو الخطأ!

أفضل شيء فعلتَه، يا جدّي، أنك متّ قبل أن ترى كل هذا الخراب، قبل أن ترى ذاكرتك تتدمّر، تتبدّد أمامك. أين أنت الآن يا جدّي؟!

الحروب، كل الحروب، متشابهة، صدّقني! تختلف البدايات والأسماء فحسب، لكن السيرورات كلها تتشابه، كلها تدور حول شهوة السلطة، كلّها تستعر بوقودٍ بشري هم الفقراء والمهمّشون، كلها تتزاوج مع الموت والحرائق، رائحة اللحم البشري المحترق، الجثث، الصراخ، الألم، الكره، الحقد، والوحشية.

هل كان هذا صوت عقلي، أم أنه «كريس تايلور» يحدّثني!

في «ريف إدلب» تذكّرت «مليكة» الأوزبكية، تلك التي هربت من «وادي فرغانة» تاركة وراءها أماً كجارية وأخاً تلبّسه جنّيّ على

t.me/qurssan

هيئة مقاتل إسلامي. لم أتذكّرها في السرير، فقد كدت أنسى تفاصيل كل ما حدث باستثناء وفرة اللحم الذي كان! لكني كنت أرى «المليكات» وهنّ يسرن في الشوارع هنا كأشباح خائفة، يقبضن على أيدي أولادهن أو يلحقن رجالهن المتقدمين المستعجلين، وقد غطّين كل ما يمكن أن يُغطّى من أجسادهن إلا الوجوه. حتى الطفلات هنا كنّ بحجابات رأس متينة. وأتخيّل من منهنّ ستُقدِم بعد مدة على ما سبق أن أقدمت عليه «مليكة»؟!

ليست «مليكة» هي التي تذكرتها فحسب، بل «جوليا» الروسية أيضاً التي قالت لي يوماً: حين ينهار المجتمع تنهار كل قيمه، وإن لم نكن نملك قيمنا الخاصة، فسنصبح أناساً بلا قيم!

حين ننظر إلى الوراء بعد أن تكون الحرب قد انتهت، نكتشف أنها لم تنتهِ في دواخلنا، بل ستبقى هناك أبداً، للباقي من أيام حياتنا، وربما بعد ذلك.

ذاكرة البشرية ذاكرة مقيتة من الحروب!

لكني لا أعرف إلى اليوم ما الذي عليّ فعله بأفلامي. لم أحبّ الأفلام الوثائقية يوماً، لكني هنا وسط الجحيم صرت أشعر بأن الأفلام الدرامية مجرّد توطئة لما يحدث، إعلانات قبل بدء الفيلم، تلك التي كان جدي «سهيل زوربا» يقول عنها: مناظر. إذاً لنقل، مناظر ما قبل العرض الحقيقي، لها الخفّة والدلع ذاته بمقابل ثقل الفيلم. أفكر طيلة الوقت ماذا يمكنني فعله بها؟ هنا لا يمكن لكاست سينمائي أن يأتي، إضاءة وصوت ومساعدين وغير ذلك، هنا في قلب الجحيم لا يمكن للمرء إلا أن يكون وحده، ووحده يلحق اللقطة السينمائية، تلك التي تطير فجأة ودون إنذار كسرب حمامٍ مرعوب، وعليه أن يلتقطها وهي تهمّ بتحليقها بسرعة نمر يلحق طريدة، وإلا ذهبت دون عودة! هنا لا مكان لبطء التصوير السينمائي، ولا مكان لترف التقنيات المدهشة، ولا لإبداع المخرجين الخارج عن أيّ عقال، ذلك أن فداحة المشهد الحقيقي، فظاعة ما ينتجه البشر دون تحضير مسبق، تكاد تتفوّق على كل الفنون التخييلية!

t.me/qurssan

سأفكر لاحقاً بما يمكنني أن أفعله بالمواد التي لديّ، هل أجعلها فيلماً وثائقياً، أم أستفيد من المادة الوثائقية التي لديّ لأبني عليها فيلماً تخييلياً، أم أني سأخرج فيلماً وثائقياً درامياً في آن واحد؟!

قطع «يوسف» سلسلة أفكاري بضحكة عالية. كان الشباب حولنا يلفّون سيجارة الحشيش الثالثة، يفرّغون سيجارة حمرا طويلة من تبغها ويخلطون فتات معجون الحشيش الأخضر القاتم مع فتات التبغ ويعيدون ملأها من جديد. هناك شابّ يبدو محترفاً بامتياز، كان اسمه «أبو عقبة» تعرّفت إليه البارحة فقط. بخار إبريق الشاي الذي يغلي على الحطب المشتعل ينتشر مضاعفاً في الهواء بسبب رطوبة الليل التشريني البارد.

- لو رأونا فسيجلدوننا في ساحة القرية.

عاد «يوسف» للضحك، يبدو أن الرشفات القليلة التي أخذها من السيجارتين السابقتين أدارتا رأسه.

بعض الشباب الذين التحقوا بنا قبل مدة قصيرة، هنا في «ريف إدلب»، حملوا معهم بضع قطعٍ من الحشيش استطاعوا إخفاءها بين ثيابهم. فالمقاتلون الإسلاميون راحوا يزدادون في المنطقة، ولاقتناء الحشيش عقوبة لا يمكن التكهّن بحدودها. أحياناً بين ليلة وضحاها تختلف أشكال بعض المقاتلين هنا، يحلقون شواربهم ويتركون لحاهم دون تشذيب، أولئك الشباب أنفسهم الذين كانوا مثلنا قبل وقت قليل. لكن ذلك التغيير لم يقتصر على الشكل الخارجي فحسب، بل طال عاداتهم وأداءهم تجاهنا، نحن الذين لم ننخرط بعد في لعبة الفصائل وتمويلها. بين ليلة وضحاها سيغدو الدخان أيضاً مشكلة كبرى لشاربه، فما بالك بالحشيش!

- ربما سيأتي اليوم الذي سأنتسب فيه إلى واحدة من هذه الفصائل الإسلامية.

قال لي «يوسف» البارحة بعد يومٍ طويل ومتعب.

- أرجوك، لا تقل ذلك...

t.me/qurssan

- وكيف يمكنني أن أظلّ على قيد الحياة دون مال، ودون تمويل، ودون جماعة تحميني؟! قل لي؟

- ...

كم حلمت بأن أبدع فيلمي المنتظر هنا، حيث الحكايات بانتظاري على واجهات المباني المدمّرة، ووسط الأنقاض وضجيج الحرب، وفي عيون أطفال حفاة. لكن لم يبدُ الأمر كما تخيّلته أبداً. الشباب يضحكون من حولي ورائحة الحشيش راحت تفوح في الأرجاء. أردت أن أخرج من أفكاري، أن أخرج من خذلاني، وكانت ثلاث رشفات عميقة كافية لأن أسبح في غيمة حليبية خفيفة عطرة، جعلت جسدي خفيفاً مثلها يتهادى فوق المكان. مع الحشيش يغدو الزمان واقفاً في مكانه، تستطيل اللحظات بخفّة مرحة، كل الخراب المحيط يصبح مدعاة للضحك، ضحك ضحك ضحك، يجعل من صدري ملعباً أخضر لصغار الغزلان، من رأسي ساحة رقص شعبي، من أذني صالة للموسيقا الكلاسيكية، ومن روحي راقصة باليه خفيفة كنسمة، وفاتنة كقمرٍ عميق بدأت الغيوم تبتعد عنه!

في لحظةٍ ما وسط سهرتنا، أحسست بغواية طعم الإكسبريسو في فمي ولذعة السيجار في خياشيمي، كان الطعم والرائحة أيضاً كثيفين حقيقيين إلى الحدّ الذي لا أعرف اليوم ما إن كانا حقيقيين أم لا! يا الله كم مرّ وقت طويل لم أعش تلك المتعة الوافرة كأنها نسمات من الفردوس!

اقترب «يوسف» مني بعد أن انطفأ الشباب من حولنا، وتكوكر كلٌّ منهم على نفسه لينام بثيابه متلحّفاً بطانية أو غطاء وسخاً ما، وضع يده على كتفي وهمس: ها.. بماذا تفكّر؟!

ولم أعرف، آنذاك، أنها ستكون الليلة الأخيرة لي معه!

لدي حتى الآن ثلاثة أفلام قصيرة منتهية في رأسي، والعشرات من الأفكار والمشاهد المتفرقة الأخرى التي تنتظر العمل عليها. حفظت كل ما صوّرته على ملفات في Dropbox، فقد كان

t.me/qurssan

الإنترنيت الفضائي متوفراً في معظم الأوقات. «مونولوج» كما حفظتها على الهارد ديسك. كفكرة مبدئية أفكّر أن أسمّي العمل: أحلام معدّة للنسيان. هذا مبدئياً وربما تغيّر مع الوقت. هذا العمل مؤلّف من ثلاثة «سكريبتات» تبدو منفصلة، لكنها مترابطة بشكلٍ خفيّ وعميق، أتخيّلها على الشكل التالي بالاعتماد على كثيرٍ من المشاهد التوثيقية التي صوّرتها:

Script 1

سكريبت الفيلم 1

قبّة خضراء مزرقّة

يُخرج الشيخ «أبو علوان» إبريق الشاي المعدني الصغير، الذي اسودّت جوانبه من لسعات النار على الحطب، ويجلس على كرسيّ خشبيّ مخلّع بهدوء كي لا يقع به أرضاً. القطعة المتبقية من الشرفة التي يجلس عليها سقط درابزينها، وخرجت قضبان الحديد من أرضيتها الإسمنتية، فبقيت عارية وسط الدمار الهائل المحيط. يرتدي طاقية صغيرة بيضاء وملابس شتوية مهلهلة على جسده النحيل.

(تخرج العدسة زوم آوت في لقطة واسعة Long shot فتبدو كل المباني المحيطة المدمّرة عن بكرة أبيها، السقوف التي انطبقت على الأرضيات، قضبان الحديد المشرئبّة كسيوف عملاقة مشهرة في وجه السماء، قطع الملابس المنتّفة، النوافذ المهشّمة، و«أبو علوان» من البعيد يجلس وحده، كائن حيّ وحيد وسط خرابٍ جامد، جافّ، ومرعب، محيط به).

تعود الكاميرا «زوم إن» باتجاه «أبو علوان» على قطعة الشرفة المدمّرة. تبدو عيناه هادئتان وهو يصبّ الشاي في ثلاثة كؤوس صغيرة.

- «ما بقي إلا الشاي، حتى السكّر خلص اليوم. شويّة كسرات خبز معفّن وكمشة وراق شاي»!

t.me/qurssan

يقول «أبو علوان» دون أن ينظر إلى الكاميرا.

- ولمَ ثلاثة كؤوس من الشاي؟

يسأله صوت.

- «إلك وإلي، ولضيف يمكن يجي بأيّ لحظة».

- وأين الضيوف في مثل هذا الخراب يا صديقي؟

- «المكان مليان بالأرواح، ما بتقدر تحسّ فيها؟ أرواح اللي ماتوا، أما اللي هربوا من هون فأرواحهم ظلّت معلّقة في فضاء أمكنتهم بانتظار الرجوع. ويمكن يجي أيّ واحد منهم بأي لحظة».

ينظر إلى الصوت:

- «أمثالك ما بيقدروا يشوفوا الأرواح. أما أنا فبعيش معها وبينها، في الليل وقت بتهدأ أصوات القذائف والرصاص والقنابل، بقدر أسمع هسيسها على الحجارة والدمار».

- وهل تكلّمها؟

ينظر إلى الكاميرا بازدراء ولا يجيب.

(قطع)

أصوات القصف تصمّ المكان، صوت الطائرات المحمّلة بالبراميل المتفجّرة، صراخ الناس وهم يركضون باتجاه مكان ما، وعيونهم شاخصة إلى السماء. الكاميرا تهتزّ مع حركة الهروب، وتلتجئ إلى شجرة زيتون قريبة. في اللحظة تلك يسقط جسم قريب وينفجر بدويٍّ هائل، تهتزّ الكاميرا اهتزازاً شديداً وتغيب الصورة.

(قطع)

تعود الكاميرا لتنظر إلى الشيخ «أبو علوان» من داخل البيت المتداعي، يبدو الكادر وهو محاط بالجدران المحطّمة وقضبان الحديد والغبار. «أبو علوان» ما زال يشرب الشاي، وينظر إلى مكانٍ بعيد تتناهى منه أصوات «دوشكا» متواترة.

t.me/qurssan

- «مـا تزوجـت، ومـا جبـت أولاد، ولكن كـل أولاد الحـي كـانوا أولادي».

يرشف من كأس الشاي.

- «وهذا بيخلّي الأمر أصعب، تخيّل أنو تفقد كل أولادك وإخوتك بالجملة، وتبقى وحدك مع ذكراهم!».

- ولمَ لم ترحل عن المكان مثلهم؟

لم يُجب الشيخ، قرّب كأس الشاي من فمه، قبل أن يهدر صوت طيارة حربية قريبة للغاية، ويطغى على المشهد كلّه.

(قطع)

يبدو الشيخ «أبو علوان» وهو يمشي وسط الدمار باتجاه مبنى صغير ما زالت قبّته الخضراء المزرقّة كاملة، ولكنها مالت حتى كادت تلاصق الأرض.

- «هذا كان جامعي الصغير، هذا كان حياتي كلّها».

وحمل عن الأرض قطعة من زجاج قيشاني ما زالت تلتمع بجمالها الملوّن.

- «هنـا كنـت أقضـي كـل وقتـي، أؤذّن خمـس مـرّات فـي الـيوم، وأجتمع بالمصلّين يوم الجمعة لأخطب فيهم».

يحاول «أبو علوان» الدخول إلى المكان عبر بوابته المتداعية، لكن حجراً ما ينهار في الداخل ويمنعه.

- «مـا كـان مسـجد كبير، بل صـغير ودافئ ويتسع لمعظم رجـال الحي».

الغبار يخرج ليعمّ الكادر.

- «هجرتـه وقـت صـاروا يـأتوا إلـي ويطلبـوا منـي أنو أقـول فـي خطبي اللي يريدوه. أنا ما بقول اللي بيريده حدا، أنا بقول اللي

t.me/qurssan

بيقوله قلبي الممتلئ بالله وبس».

يرمق الكاميرا، ثم يتّجه إلى شجرة كينا قريبة ومغبرّة ما زالت صامدة وسط الموت!

- «أنت بتعتقد أنهم مؤمنون لأنو بيتنقلوا بلحى طويلة وشوارب حليقة ووجوه عابسة؟! لا غلطان، هدول ما بيعرفوا عن الإيمان شيء، شو يعني الإيمان بالله! الكاره ما ممكن يكون مؤمن صالح، الحاقد ما ممكن يكون مؤمن، المنتقم ما ممكن يكون مؤمن، لأن الله هو المحبّة!».

تبتعد الكاميرا عنه لتنتقل إلى الدمار المحيط، ويبقى صوت الطلقات والانفجارات البعيدة هو السائد.

Script 2

سكريبت الفيلم 2

فساتين الأحلام لا تُزهر

يدخل «سلام» من الصالون إلى غرفة النوم، وعلى الرغم من أن البيت يبدو مهجوراً، والجدران رمادية دون دهان وقد تدمّر بعضها قليلاً، إلا أن غرفة النوم تبدو مختلفة بسماتٍ أنثوية، مرتّبة وملوّنة. يتحوّل وجه «سلام» ليغدو ملهوفاً محمرّاً وهو يحاول أن يفتح أدراج خزانة الثياب. يُخرج مجموعة من الألبسة الداخلية النسائية، ملوّنة ومزيّنة بالدانتيلا والريش. يبدأ باشتمامها وتمريغها بوجهه، يتلمّس قماشها الناعم، ويحملها عالياً أمامه كأنه يتخيّل امرأة ما ترتديها. ثم يتوجّه إلى طاولة الزينة، يفتح زجاجات العطور المتروكة على الطاولة، يتنسّمها بشهيقٍ عميق وهو يغلق عينيه، يتلمّس مساحيق التجميل، ويعبث بأدوات الزينة والتفاصيل الباقية.

البيت فارغ، ويبدو كأن العائلة التي تسكنه تركته فجأة وهربت، فكل شيء بقي في مكانه كأنهم رحلوا للتو، حتى صحون الفطور ما تزال متروكة على طاولة المطبخ، والملابس ما زالت على

t.me/qurssan

الأسرّة غير المرتّبة!

تعود الكاميرا «فلاش باك Flash Back» فيبدو «سلام» مع عشرات المعتقلين الآخرين في زنزانة معتمة. يجلس على الأرض وتحته فرشة رقيقة ويتحدّث مع رفيقه المعتقل.

(سلام كان معتقلاً لدى النظام، ولكني لا أقدر ببساطة أن أصوّر داخل سجون النظام، لذلك فقط صوّرت بعض المعتقلين في زنزانات المعارضة هنا. مجموعة من الجنود ورجال من اللجان الشعبية، أو الشبّيحة كما كان يُطلق عليهم. في النهاية، الزنازين تتشابه أينما كانت...).

يخرج صوت «سلام» (sound over) منهكاً مبحوحاً، والكاميرا تجول في داخل السجن: «هذا المكان الذكوري يكاد يقتلني! لم يقتلني التعذيب، ولا انتظار الموت، لكن أصوات الرجال الخشنة لأربع سنوات كاملة سيقتلني. لم أشمّ إلا روائحهم، ولم أصطدم في الفراغ الضيّق هذا إلا بهالاتهم الذكورية. كانوا في معظمهم رفاقي، ولكني سئمت ذكورية هذا المكان. يا الله كم حلمت بمكان أستطيع أن أشمّ فيه رائحة أنثى، أن أتلمّس جسد أنثى طرياً ناعماً! في خيالاتي لطالما فعلت، في نومي وفي يقظتي.. كانوا يسخرون مني دائماً كأنهم يستطيعون رؤية مناماتي، وكأنهم يقرؤون خيالاتي!».

وحين تركّز الكاميرا على وجهه الشاحب وفي عينيه تحديداً، يكمل الصوت قائلاً: «في السجن أنت بين أَسرَين: أسر السجّانة والطغاة، وأسر رفاقك المعتقلين الذين يراقبون نومك ويقظتك وهلوسات الحب التي تحلم بها!».

(قطع)

تعود الكاميرا إلى الحاضر، إلى صالون البيت حيث يجلس «سلام» على صوفا خشبية مهملة، وحوله مجموعة من علب الحلويات، وهو يأكل منها دون توقّف، ويقلّب في محطات التلفاز الذي يبدو غريباً في مثل هذا البيت وفي هذا الوقت بالذات.

t.me/qurssan

بجانبه إحدى قطع الملابس الداخلية النسائية بلون أحمر فاقع، يشمّها كل فينة ثم يعاود المضغ والتلمّظ بالحلويات.

يقوم من جلسته ليذهب إلى الحمّام، وهناك على الباب الخشبي القديم يراقب مجموعات من الدود المتكاثر في شقوق الخشب البالي. يفتح الباب، فيرى مجموعات أخرى أكثر وأكثر من الدود المتكاثر وراء الباب حيث الرطوبة والعتمة والقذارة. يعدل عن دخـول الحمام، ويعـود مسـرعاً إلـى الصـوفا حـيث تـرك قطعـة الملابس النسائية، فيشمّها بعمق.

في لحظةٍ ما يسمع صوتاً يناديه من الخارج، ويسيطر على المكان صوت إطلاق نار كثيف.

(قطع)

تعود الكاميرا «فلاش باك Flash Back» من جديد إلى الزنزانة المعتمة، حيث تتناهى إليها أصوات تعذيب واستغاثة من بعيد. «سلام» يضع رأسه بين كفّيه وهو يجلس على الأرض متّكئاً على الحائط، ويحاول أن يمنع أصوات التعذيب من الوصول إليه عبثاً. في لحظة ما تتوقف الأصوات، ينزل كفّيه ببطء لينظر في وجه رفيقه الذي بجانبه، والذي يبدو مرتعباً كذلك ويحاول الإنصات.

(قطع)

تعـود الكـاميرا إلـى اللحظـة التـي أُطلـق فيـها سـراح «سـلام» من المعتقـل. يبـدو متعبـاً، متّسـخاً، بثيـاب مجعلكة وقـذرة. ينتظره رفيق عند الناصية، يحتضنه باستعجال ويبدو مذهولاً، يقول له: «الحمد لله على السلامة!»، ويرافقه في طريق ذاهب إلى البعيد.

- سأضعك في بيت قريب من المكان الذي نتمركز فيه، يمكنك أن تستريح هناك عدة أيام قبل أن نتحدث.. هيا.. البيت هجره أهله بعـد القصـف الأخـير، لا تقلـق! أمـامنا الكثير لنفعله فـي الفتـرات القادمة، تغيّرت الأمور كثيراً في السنوات القليلة التي اعتقلت فيـها.. البلـد اليـوم لا يشـبه البلـد الذي تركته قبل ثلاث أو أربع سنوات!

t.me/qurssan

«سلام» يمشي ببطء دون إجابات.

- لا تقلق، الآن حان وقت الثورة!

ويربّت على كتف «سلام» مشجّعاً.

(قطع)

يحاول «سلام» أن ينام وهو ما زال يمضغ لقمة الحلويات الأخيرة، ويحتضن قطعة الثياب الداخلية. للحظة بين النوم واليقظة، يحلم بأنه يراقص امرأة شابة في غابة هائلة مليئة بالأشجار تحت المطر، وقد التصق ثوبها الرقيق الأحمر الفاقع بجسدها، فشفّ عما تحته. يحتضنها، يقبّلها، ويشمّ رائحتها الأنثوية المثيرة. ثم يصرخ وماء المطر يغسل وجهه وجسده: أحبّك!

وتبدو فسحة من السماء فوقهما رحبة من بين الأشجار، وهما يرقصان ويرقصان.

فجأةً، يهدر صوت عظيم لطائرة حربية، وينتفض هلعاً من أحلام يقظته. يسمع أصوات انفجارات بعيدة، فيجلس مفنجراً عينيه مترقّباً، يسود صمت جليل قبل أن يستمع إلى صوت زعيق وتكبيرات وبكاء. فيضع رأسه بين كفّيه ويصرخ صرخة طويلة وعميقة.

Script 3

سكريبت الفيلم 3

أساطير الشتات

ستكون الكاميرا مسلّطة في البداية على «أم سمير»، وهي سيّدة في أواخر ستّينياتها، وجهها مليء بالتجاعيد وترتدي غطاء رأسٍ داكناً فوق فستان ريفيّ ملوّن وشالٍ صوفيّ حليبي اللون، وتمشي بتثاقل تعب. تبتعد الكاميرا في وضعية «long shot» لترصد سيلاً عارماً من الناس متّجهين إلى الحدود البعيدة.

t.me/qurssan

بجانب «أم سمير» تمشي، بتثاقل أكبر، فتاةٌ عشرينية نحيلة للغاية وحامل، هي «سناء»، يبدو التعب واضحاً على محيّاها، وهي تمسك بطنها العالية والبادية من تحت ردائها الطويل الأسود. الناس يحملون أكياس نايلون أو حقائب جلدية، بعضهم يحمل فرشات والبعض كراسي، وشابّ يحمل عوده بيد وقطّته باليد الأخرى. نساء مع أطفال، شيوخ مستندون على أيدي الشباب، والكل يمشي بصمت، السيل يتقدّم ببطء ممضّ باتجاه المجهول.

«أم سمير» تُبربر طيلة الوقت بغضب:

- «لو كان إخوتك موجودين، ما كنتِ هون الآن، كنّا رمينا جثتك للكلاب. وخلصنا منك...».

«سناء» تمشي مُطرقة بصمت.

تتلفّت «أم سمير» حولها وتعاود الحديث الغاضب بهمس:

- «لو كان الله أخذك بدل أخيك.. ليش يا ربّي تركت لي هالمصيبة؟! ليش أخذت أخاها الجوهرة وتركت لي هالكلبة؟! ليش يا ربي بدّلت غزلاني بقرود؟!».

الفتاة على صمتها وإطراقها، والعجوز تشتمها بصوت واطئ ومليء بالحنق: «عايبة».

تمرّ من جانبهما أمٌّ مسرعة مع ولدين يبكيان، أحدهما وُضعت يده في الجبس والآخر رأسه ملفوف بالشاش. الفتاة الحامل يزداد وضعها سوءاً وهي تستمر في المشي، ويبدو الألم أكثر على تعابير وجهها. في تلك اللحظة يظهر بجانبها شابّ لفّ رأسه بكفيّة مرقطة وببنطال عسكري خاكي اللون وبلوزة سوداء.

- إبراهيم؟

همست بلهفة المفاجأة.

- «إسّاك على قيد الحياة؟ فكّرتك متت يا حبيبي!».

t.me/qurssan

تحاول أن تقف، لكن «إبراهيم» الصامت جرّها من يدها بابتسامة، وعاودا السير مع الجموع خلف «أمّ سمير».

- «وين كنت يا حبيبي؟ كل هالشهور الطويلة؟ هذا ابننا في بطني رح يولد بين لحظة وتانية، وأنت بعيد وما سمعت خبر منك! قال لي الجيران إنك استشهدت مع المجموعة اللي راحت عالحاجز الشرقي. خانوكم يا حبيبي، خانوك صحيح؟! كانوا ينتظرونكم بكمينٍ على الطريق، وقالوا لي إنكم استشهدتم كلّكم...».

في تلك اللحظة تلتفت «أم سمير» إلى ابنتها في الخلف، ولا تبدو أنها رأت «ابراهيم» يمشي إلى جانب ابنتها، ولا سمعت ابنتها تتحدّث معه قبلاً!

تشدّ على مخارج حروفها قائلة:

- «رح نتركه بمكانه وقت يلد، ما رح ربّي ابن حرام تحت سقفي.. فهمتِ؟ رح نتركه بمكانه ليصطفل ربّه به.. أستغفر الله!».

ثم تعاود المشي.

تحاول «سناء» أن تلفت نظر أمّها إلى «إبراهيم»، لكنه يغلق لها فمها، ثم يمسك بيدها من جديد مبتسماً.

- «تدمّر كل شيء يا إبراهيم، بيت أهلك اللي كنّا حنسكن فيه، بيت أهلي انهار نصّه، الحمد لله أننا كنّا بالمطبخ وقتها وما نزل السقف على رؤوسنا... قالوا لنا لازم نهرب، حيدمّروا المنطقة كلّها. قالوا إن الناس هناك على الحدود قاعدين بمخيّمات آمنة، فترة قصيرة ويعودون إلى بيوتهم. هناك بتشوفوا أكل وحليب، ما بتتخيّل كيف صار حالنا بالشهور الأخيرة! ما عنّا شي نأكله. البارحة وقبل الغارة الجوية الأخيرة كنّا نسلق أعشاب لمّتها أمي من حقل «جويّد» القريب. ما عاد عنّا شي نأكله...».

«إبراهيم» يمشي بجانبها ساهماً وهو يمسك بيدها.

- «احكي لي يا حبيبي شو صار معك؟».

t.me/qurssan

في تلك اللحظة تلتفت «أم سمير» بغضب:

- «أسرعي! سبقنا معظم الناس، ما رح يبقى لنا مكان هناك لو ظللنا على مشيتك هذي.. رح نتركه وقت تلديه، ابن الحرام هذا».

وتعاود «أم سمير» المشي والبربرة.

للتو تتكوّر الفتاة على نفسها وقد جاءها مغصٌ شديد. ثم تجثو على الأرض وهي تنادي أمها. «إبراهيم» قلق لكنه يقف متفرّجاً فحسب، و«أم سمير» تمسك بابنتها وتحاول أن تهدّئها دون أن ترى «إبراهيم»، الذي يبدو للمرة الأولى بطوله الكامل ومرتفعاً عن الأرض!

لكن حين يستمرّ الألم الشديد، يبدأ وجه الفتاة بالغياب، ثم تتلمّس الأم سائلاً لزجاً سال بين ساقي الفتاة تلهج بتوتّر:

- «يبدو أنه الطلق.. يا الله تعالي يا حبيبتي».

تسند ابنتها لتخرجا من سيل الناس المهجّرين، وتتّجها إلى شجرة زيتون قريبة. هناك تفرش «أم سمير» شالها الصوفي لتجلس ابنتها التي تلد عليه، ثم تغطّيها بغطاء رأسها دون أن تتردّد في خلعه وقد بدا شعرها ثلجياً تحته. وتبدأ عملية الولادة: «سناء» تصرخ مجاهدةً لتلد، والأم تشجّعها وقد بدأ العرق يغسل وجهها ويضمّخ ثيابها، و«إبراهيم» يحلّق جانباً قريباً من الأرض وهو يبكي... أخيراً يصرخ الجنين معلناً ولادته، تحمله الجدّة بابتسامة ودموع، وتلفّه بطرف ثوبها مقبّلة إيّاه.

في تلك اللحظة يقبّل «إبراهيم» جبين «سناء» ويمرّر يده على رأس المولود، ويختفي كما تختفي الأشباح.

(قطع)

لقطة أخيرة ستبدو فيها «أم سمير» مبتسمة وهي تحتضن حفيدها الصغير ملفوفاً بغطاء رأسها بيد، وتسند ابنتها المتعبة بيدها الأخرى، وهم يمشون وراء سيل الناس الذي ابتعد كثيراً كثيراً باتجاه الحدود. وهناك، حين ستلحق الكاميرا السيل، سيبدو

t.me/qurssan

الكثير من الأشباح المحلّقة بجانب أحبابها في رحلة الهرب الطويلة. وسنسمع همسات البشر وهي تحدّث اشباحها. ثمّة أمٌّ عجوز تناجي ابنها الغائب، وهناك رجل يسأل أخاه عن مكانه وأين تُرك جسده! ثمّة طفلة تستفسر من أبيها عما إن جلب لها اللعبة التي وعدها بها قبل أن يغادر... كلمات وكلمات، همسات ووشوشات، تتداخل معاً، وتضيع وسط سحابة كبيرة من الهمهمات غير المفهومة التي ترافق جمع المهاجرين إلى المجهول.

- أشعر بالخزي من انتمائي إلى بشريّة كهذه .. لن يغفر الله لنا !

قال لي ذلك العجوز الذي التقيته على تخوم قرية مدمّرة.

كنت ما أزال ممسكاً بكاميرتي، أنا «دييغو» المصوّر الأمريكي الشاب الذي يجوب شوارع الحرب في سراييفو(37)، وما زلت ألتقط صور الخراب ولم أملّ! هنا وسط الموت اليومي، الموت الذي يصاحبك حتى يغدو أقرب من روحك إليك، تعتاد عليه كتفاصيل جسد حبيبتك، ويصبح عدمه شهوة، ولامعناه هو كل المعنى! الألوان حولي سوداء وحمراء، تناقض صارخ يكشف أمامك الحقيقة التي كانت مخبّأة عن بصيرتك بغطاءٍ سميك، أو ربما أنت من كنت مغطّى بذلك الغطاء وليست هي. الحقيقة التي تقول لك إننا كائنات من عتمةٍ ودم!

في النهاية يتحوّل ذلك الموت الذي اندمج في خلاياك إلى حلٍّ سحريّ لجميع مآزقك الشخصية والأخلاقية، حلّ سحري ينهي كل شيء. **هنا لا يمكنك أن ترى الحياة إلا وهي تسخر منك ، كأنها عجوز شمطاء فقدت كل أسنانها ، نضاجعها مستمتعين بعيون مغمضة ، ونحلم بأننا نضاجع امرأة بمؤخرة مثيرة !**

قال لي ذاك العجوز في نهاية رحلتي، ثم أردف محذّراً:

- الهروب يا دييغو من القنابل أهون من المشي على الحطام.. صدّقني!

صحيح... اليوم أنا أصدّقك!

t.me/qurssan

وبهذا قرّر «يوسف» أن يضع نهاية للحكاية، ويخرج من مآزقنا، في ذات مساء شتويّ. كنّا نجتمع حول تنكة معدنية تشتعل فيها قطع من الأغصان، لممناها من بقايا شجرٍ ظلّ البعض منه فقط صامداً، فالبقية قطّعتها فؤوس القرية كي تحارب شتاءً قاسياً كوحشٍ جائع في صحراء سيبيريا! لأول مرة لا أذكر اسم ذلك الفيلم الذي رأيته عن وحشة سيبيريا! ماذا كان اسمه؟!

وجه «يوسف» شاحب أكثر من أيّ يوم آخر. ولم أستطع أن أقبض جيداً على جسد كاميرتي وأنا أنظّفها، فقد كانت أصابعي حطبات متجمّدة بعد ساعات من المشي في الزمهرير. لذلك فقد قرّرت إعادتها إلى الحقيبة ريثما أدفئ يدي قليلاً، ووسّدتها جدار البيت القريب من جلستنا. رائحة الحطب المشتعل تدخل روحي، بل تقتحمها، لتجعلني أشعر بدوار لذيذ يذكّرني برائحة الحطب المشتعل في مساءات قريتي الشتوية. شممت عبير ثياب جدّي تطغى على الرائحة القاتلة للفيلد العسكري الذي ألبسه، وشعرت بملمس يده تمسّد بنعومة ورتابة لساعات على ظهري دون كلل. أغمضت عيني، وشعرت بأني أعلو...

فجأة انفجر صوت هائل ليس ببعيدٍ عنّا، صوت لم أسمعه من قبل رغم كل ما مرّ معنا قبلاً. هبّ الجميع صارخاً، وزعق أحدهم من البعيد: «برميل». تعلّقت عيوننا بالسماء الملبّدة القاتمة. أمسكني «يوسف» من يدي وراح يجري باتجاهٍ ما. لم أعرف إلى أين كان يجري؟! لكننا كنّا ندخل في العتمة أكثر، وربما كنت أصرخ: ليس من هنا يا يوسف، في الاتجاه المغاير...

حين راح صوت انقلاب شيء ثقيل في الهواء يقترب منا.. بجج بجج بجج.. لن يعرف أحد لم يسمع ذلك الصوت البغيض ماذا يعنيه صوت انقلاب برميل يقترب منك عبر الهواء! يتغيّر ضغط الجو في أذنيك، وتشعر بموجة هواء هائلة، الموجة ذاتها التي دفعتني بعيداً كطاقة شرّ مكثّفة في وجهي، جعلتني أفلت يد «يوسف» وأطير بعيداً، ثم لم أعد أتذكّر شيئاً!

t.me/qurssan

استيقظت على صوت مئات الأنّات والاستغاثات في غرفة مليئة بالأجساد المدمّاة. أحسست بملمس البطانية على جسدي العاري، والأصوات الصارخة تغلّفني، تذكّرت «يوسف».

«يوسف.. أين هو يوسف؟!». رحت أصرخ، وشعرت بألمٍ فظيع في خاصرتي اليمنى، قبل أن أمدّ يدي إلى هناك وأرجعها مليئة بالدماء.

صاح أحدهم بي ألّا أصرخ، وإلا سينفتح جرح بطني مجدداً.

بقيت مستلقياً هناك دهراً، لم يُجبني أحد عن أسئلتي حول يوسف، بقيت أياماً لا أرى إلا أجساد المصابين، ولا أشمّ إلا رائحة الدماء والمعقّمات الطبّية الواخزة، أنام وأستيقظ، أموت من الألم حتى يعطيني أحدهم إبرة مخدّر تسطح بغلاً، كما كان يقول لي في كل مرة يغزّ الإبرة في ساعدي، فأغيب لوقتٍ لا أعرفه، ثمّ يوقظني الألم والصراخ والرائحة من جديد.. وهكذا.. في برزخ الألم كنت أنا، لا أكاد أصحو حتى يغمى عليّ!

بعد أيام عرفت بمقتل «يوسف»، أخبرني رفيقٌ له لمحني ممدّداً في طرف الغرفة. اقترب مني محاولاً الابتسام:

- اعتقدناك استشهدت، الحمد لله ع سلامتك.. يوسف استشهد، الله يتقبّله، راح بطل، ومبارح كانت جنازته مع عشرة شباب من عنّا.. ادعي له الله يرحمه...

لا أعرف كيف رتّبت الحياة لقائي مع المهرّب «أبو الهيجا»، هكذا بشكل عفويّ وبسيط، كأنها تقول لي لقد وهبتك الفرصة الأخيرة فاقتنصها. قال لي المهرّب: في الشهور الماضية ساعدت المئات على الهرب، ثِق بي، لم يعد العيش هنا ممكناً، الهرب هو الحل! أنا أهبكم حياة جديدة، أوصلكم إلى أرض الأحلام.

لم أعرف لمَ لم أسأله يومذاك: لماذا، إذاً، بقيت أنت هنا؟ صدّقته دون تفكير، صاحب الحاجة أرعن دوماً، ولم يكن لديّ في الحقيقة حلولٌ أخرى، بعد أن تأكدت من أن بطاقة إقامتي في الإمارات المتحدة قد أُلغيت، وأن العودة إلى بيت عمّتي أكثر

t.me/qurssan

خطراً من الهرب إلى الخارج.

كانت جملة العجوز ترنّ في أذني: أشعر بالخزي من انتمائي إلى بشرية كهذه.. لن يغفر الله لنا!

أردّد بيني وبين نفسي كتعويذة: الهروب يا دييغو من القنابل أهون من المشي على الحطام.. الهروب يا تموز من القنابل أهون من المشي على الحطام.. الهروب يا...

لكنه ليس حطام الأبنية والشوارع والأشجار، بل هو حطام الأرواح والبشر والذاكرة، حطام ما كان يسمّى: وطن.

حين خرجت من الغرفة/ المستشفى، كان بطني كلّه ملفوفاً بالشاش، وما زال الألم الحارق يمسك بي مع أقلّ حركةٍ مباغتة أقوم بها. وجه يوسف لا يفارقني، بكيت عليه طيلة مكوثي في تلك الغرفة. لم تفارقني ولا للحظة صورته الحلوة الحبيبة. كان من الجيد أني لم أره في موته، لا أحد يعرف، لربما لم يبقَ جسده كاملاً، وأنا لا أريد لصورته أن تتشوّه في رأسي. عدت إلى مكاننا الأخير، وكانت حقيبتي ما تزال تنتظرني سالمةً مستندة إلى حائط البيت الذي لم يطُله سوء. يا إلهي! كأنها رسالة من القدر تقول لي: أكمِل!

لم أستطع أن أستعيد صور «يوسف»، لن أستطيع أن أراه ضاحكاً وحاضناً رشّاشه، ولا مستلقياً، ولا وهو يرفع إشارة النصر، ولا وهو يغنّي أو يرشف كأس الشاي.. يوسف يا يوسف، يا نصفي الثاني الذي غادرني دون عودة! سأهرب من أمكنة كرهتُها لأنك لست فيها، من ذاكرة مليئة بالفجيعة، سأحمل كاميرتي، بكلّ ما فيها، وأهرب.

من قال إننا نهرب من الحرب؟ لا، نحن نهرب من خوفنا، من فجيعتنا بتغيير ذاكرتنا قسراً، من صور أحبّةٍ لُوّثت بالنسيان، من دروبٍ لطالما كانت دروباً سلكناها صغاراً وتحوّلت إلى جدران مسدودة فجأة، من وجوهٍ لطالما اعتدنا عليها اختفت!

نحن لا نهرب من الحرب، الناس لا يهربون من الحروب، الناس

t.me/qurssan

يهربون من صورهم الجميلة التي تشوّهت.

لكن رحلة الهرب من سوريا إلى تركيا لم تكن بالسهولة التي تخيّلتها، أو التي وصفها لي المهرب «أبو الهيجا»!

حين تجمّعت مجموعتنا «الهاربة»، كان الظلام قد حلَّ على المنطقة، حتى لم نعد نرى بعضنا جيداً. لم يكن لديّ أي رغبة في معرفة هؤلاء الهاربين معي. لكن عددنا وصل إلى أحد عشر شخصاً تقريباً، بيننا امرأتان وثلاثة أطفال وجنديّان منشقّان عن النظام، عرفت أنهما منشقّان من «أبو الهيجا» الذي أعاد المعلومة، التي من المفترض أن تكون سرّية للغاية، مرات ومرات، ثم قال أخيراً بلهجة آمرة متمرّسة: إذا حصل أن أمسكتنا إحدى الجماعات التي تسيطر على الطريق، فعليكما التخلّص من الهويات العسكرية بأي طريقة.. مفهوم؟!

وجه العسكري الشاحب كميّت بقربي ازداد شحوباً، وسمعت طرقات قلبه إلى مسمعي.

- وأنت؟!

قال لي.

- ما بي؟

- إلى أيّ طائفة تنتمي؟

لم أُجبه مباشرة، وربما لاحظ الشحوب المغرق الذي سكن وجهي.

- أنا سوري...

- حسناً، في كل الأحوال يفضّل ألا يرى أحدهم هويتك الشخصية.

...

حينئذٍ، وقبل أن تنطلق البيك آب البيضاء التي ستقلّنا من «ريف حماة» إلى مدينة «سراقب»، رميت هويتي ورائي في العتمة دون أن يشعر أحد. اعذرني يا جدّي، تلك مجرّد ورقة أصلاً، وهبها لنا

t.me/qurssan

من يريد أن يضعنا تحت مرمى رقابته ولا تحدّد انتمائي أبداً، انتمائي هنا في قلبي وليس في تلك الورقة المسلفنة الملوّنة. توافقني الرأي يا جدي صحيح؟!

قبل أن نصل إلى «سراقب»، علينا اجتياز حاجزين عسكريين، نزل المهرّب وتحدّث مع جنود الحاجز الأول، دفع لهم ربما وانطلقنا من جديد. الحاجز الثاني كان التعامل معه أكثر صعوبة، بقينا طويلاً نواجه الريح الباردة التي راحت تنفخ سعيرها على أجسادنا المنطوية في البيك آب. أحد الصغار راح يبكي، وصوت أمّه المذعور وهي تحاول تهدئته يعمّ المكان.

- أسكتي الولد يا امرأة، وإلا رميته من السيارة.

صاح المهرّب، وهو يصعد السيارة لنكمل طريقنا.

في «سراقب»، سلّمنا «أبو الهيجا» إلى مهرّب آخر، كان يلفّ وجهه بكفّية بيضاء مرقّطة. عايننا بسرعة ونحن متراكمون في البيك آب، قبل أن ننتقل إلى بيك آب أخرى. الجندي الذي بجانبي راح وضعه يزداد سوءاً، اسمه «جمال»، خاطبني وحده كأنه يتكلم مع نفسه، وكان يرتجف بكلّيته بجانبي. البقية أيضاً كانوا يرتجفون، وربما كنت أنا أيضاً أرتجف دون أن أعي نفسي! الخوف هو الشعور الوحيد الراسخ والملموس الذي يحمله الهارب معه في رحلة هربه، الخوف من الطريق، من أن يجري التقاطنا من قبل حواجز النظام أو فصائل المعارضة الإسلامية جبهة النصرة أو أحرار الشام، أو ربما من أحد المهرّبين الآخرين الذي يريد الإساءة لهذا المهرب بالذات. فهنا، وفي هذا الوقت، كانت أرواحنا نحن الهاربين سلعاً ثمينة في أيدي أمراء الحروب.

البرد يزداد وحشية، والريح تصفر في أذني، على الرغم من الشال الصوفي الذي ألفّ به رأسي، وحقيبتي الجلدية السوداء التي أحتضنها كطفلٍ علّها تهبني بعض الدفء والأمان. حقيبتي التي وضعت فيها لابتوبي، كاميرتي، هارد ديسك عليه نسخة من الأفلام التي صوّرتها، وطوطمي الأرجواني.

t.me/qurssan

في الطريق من «سراقب» إلى الحدود التركية أوقفنا حاجزٌ آخر. همس العسكري بقربي بصوت متهدّج: هذا الحاجز لأحرار الشام وليس لجبهة النصرة، أعرفهم من علَمهم.

- وما الفرق؟!

- الاثنان كلٌّ منهما أسوأ من الآخر، إذا تعلّق الأمر بعسكريّ منشقّ مثلي، أو برجلٍ مثلك لا هوية له، شو طائفتك إنت؟!

...

لا أعرف لمَ خطر لي في تلك اللحظة بالذات أن أعظم فيلم قد أقوم بعمله هو عن هذا العسكري، ذاك الذي بقي ستّ سنوات في هذه الحرب الحقيرة، مجبَراً على القتال في جيش بلاده، في جيش أقسم فيه على الدفاع عن البلاد، وإذا به يرى نفسه بين ليلة وضحاها يقاتل أبناء وطنه! ست سنوات طويلة طويلة بائسة ووحشية قد يتحوّل فيها، وفي أي لحظة، إلى قاتل أو مقتول، والأمران كلاهما بشِع!

لم يكن حظّنا جيداً مع هذا الحاجز الأخير. أنزلونا، أنا والعسكريّين ورجلاً آخر تجاوز الستّين من عمره، ووضعونا في غرفة عارية مظلمة وباردة ننتظر قدرنا. بعد قليل استطعت أن ألمح عديد الرجال حولي، واستطعت رؤية «جمال» وهو يمزّق الهوية العسكرية ويبتلعها بصعوبة شققة شققة، ورأيت الرجل الستّيني يبكي! ربما كنت أبكي أيضاً وأنا أحتضن حقيبتي دون أن أنتبه، ومئات الأسئلة تطرق دماغي وتزيد رعبي رعباً:

ليس لديّ أوراق تثبت هويتي، ولكن هل سيختبرون إسلامي وإيماني؟! ثمة من قال لي يوماً إنهم يمتحنون المعتقل في صلاته ومعلوماته الدينية. يا إلهي.. لمَ لم يخطر لي أن أتعلّم الصلاة على الأقل؟! غبيّ، وربما أثار شكلي ظنونهم مع هذه الكاميرا أيضاً.

هل سيرون أفلامي التي صوّرتها؟ وماذا لو رأوها؟!

لأيامٍ طويلة انتظرنا في تلك الغرفة قدرنا. شابّ أشقر البشرة قال

t.me/qurssan

لي إننا في الجنة، إذا ما أردنا مقارنة ما نعيشه هنا مع سجون النظام! فقد سبق أن اعتقل هناك حين كان ناشطاً سياسياً في ريف دمشق. قال لي:

- النظام اعتقلني لأني ناشط سلمي ديمقراطي، وهؤلاء اعتقلوني لأني ناشط سلمي ديمقراطي، نحن نعيش في بلد سوريالي يا صديقي، لا يمكن للمرء في أحيانٍ كثيرة أن يفهم أو يتكهّن بالذي سيحدث! كنت أسمع أصوات تعذيب السجناء وأنا في زنزانتي التي كانت بصعوبة تتسّع لجسدي المطويّ، تقتلني آهات الألم، تمنعني من النوم، تجلدني. هل يمكنك أن تتخيّل؟! أنا شابّ بخبرة عجوز طاعن في السن، ولم يعد هناك حقاً ما يفاجئني!

كنت أعرف أن سجون النظام أقسى، فقد سمعت الكثير خلال السنوات الثلاث التي قضيتها في المناطق الخارجة عن سيطرة النظام، لكن كلّها في النهاية زنازين. الزنازين تشبه الزنازين في كل مكان! لكني، وللسخرية، استطعت طيلة الوقت الماضي أن أنجو من اعتقال النظام، نجوت من قصفه ومن مجازره، والآن ها أنا ذا في سجون أمراء الحرب!

كانوا يأخذون واحدنا للتحقيق، يغيب لساعاتٍ ثم يعود. البعض يعود منتصباً، والبعض الآخر محمولاً ببطانية ملوثة، كما حدث مع الرجل الستيني الذي أتى معنا هنا، والذي لم يعرف أحد قصّته الحقيقية.

اتفقت أنا و«جمال» أن نعمل عنه فيلماً حين يُطلَق سراحنا ونصل إلى برّ الأمان. لكنه لم يكن متفائلاً، كان يردّد: تخيّل يا صديقي ليس لديّ مكان أنتمي إليه، أنا في بلدتي خائن، عند النظام خائن، وعند المعارضة مشكوك بأمري وخائن!

قال لي: هل أستحق أن تلتصق كلمة الخيانة بي، لأني لم أعد أحتمل البقاء أطول؟! ثم لا أظن أن النظام سيقايضني بأحد معتقلي المعارضة، هناك من هو أهم مني بالنسبة لهم. انظر، هناك عشرات العوائل والمدنيين الأبرياء ولم يسأل أحد عنهم!

t.me/qurssan

في تلك الليلة بكى أمامي بحرقة.

في تلك الليلة أيضاً وحالما نام الجميع، أو تظاهروا بالنوم، رأيت وسط العتمة المُطبِقة Starry Night(38). كانت سماء غنيّة بالألوان أكثر من الصباح، وكنت أجلس تحتها وأغتسل بشلّال الأزرق الباهر. لوحات «فان كوخ» ما هي إلا أفلام سينمائية صامتة.

رحت أدندن أغنية دون ماكلين Don McLean التي كتبها يوماً بإلهام بدعة «فان كوخ» تلك:

الليلة المرصّعة بالنجوم

تلوّن في لوحتك الأزرق والرمادي

انظر إلى اليوم الصيفي

بتلك العيون التي تعرف الظلام داخل روحي

...

في الليلة السادسة فوجئت بـ«بوبي ساندز»(39) يجلس بجانبي في العتمة. شممت أول الأمر رائحته المنفّرة، بعد شهور من «اعتصام القذارة» الذي خاضه في سجنه البريطاني مع رفاقه الثوار الإيرلنديين. كيف خطر لهم أن يواجهوا سجن المحتلين بعدم الاستحمام؟!

استقمت من نومي، وهمست له كي لا يسمعني أحد من السجناء بقربي:

- تأخرت كثيراً في زيارتي!

فقد كانت صورته تسكنني طيلة أيامي هنا، وكم كنت معه في زنزانته كذلك! يشبه «يوسف»، كأنه هو.. لكن اسمه «بوبي ساندرز». كان عارياً إلا من قطعة قماش حائلة اللون تستر وسطه، وجهه مغطّى بكدماتٍ دامية، عظام جسده النحيل نافرة عن جلده المتكمش، قدماه متسختان، ويدخّن سيجارة ملفوفة من صفحات

t.me/qurssan

الإنجيل الذي كان وحده متاحاً للتدخين في زنزانته هناك في إنكلترا.

- هل تريد أن تدخّن؟

قدّم لي سيجارته. أخذت السيجارة ومججتها بكل حواسي، فتغلغل الدخان إلى أعماق جسدي المنسية. على الرغم من أني لم أكن أدخن، فقد تركت التدخين منذ أن وطأت قدماي أرض سوريا من جديد. التدخين كان ترفاً لا يمكنني التفكير به.

قال لي: صُنعت الكتب الدينية لندخّنها! فنحن، كما تعرف، لا ندخّن إلا آلامنا! أليس لديكم كتاب مقدّس لتدخّنوه؟!

ضحك وهو يراقب صدمة الخوف على وجهي، ولم أستطع إلا أن أتلفّت حولي هلعاً. أردف بصوته الأبح ذاته: **لا تحزن يا صديقي، في عالمٍ مثاليٍ آخر، قد نعيشه في يومٍ ما من حياة أخرى، سنخوض معاركنا الخاصة التي نؤمن بها وبشكل مستقلٍ تماماً. أما اليوم فلنستخدم أدواتنا التي نملكها!**

ثم قام من فوره، وراح يمسح من غائطه العالق في مؤخرته، ويرسم به على جدران الزنزانة، يشكّل رسوماتٍ وأشكالاً وكلمات. قمت لأرسم معه، فكّرت لوهلة أن السجناء الذين معي سيستيقظون على حركتنا، وربما على وخز الرائحة الفظيعة للغائط الطري، لكن أحداً منهم لم يتحرّك!

كتبت: «حرية». و«إذا الشعب يوماً أراد الحياة».

ليس المهم بماذا تكتب، ما هي الأداة التي تستخدمها، المهم أن تكتب. ثم كتبت الجملة التي كنت أردّدها دوماً: «وحده الفن يقتل بجماله بشاعة الموت!».

وامتلأت جدران الزنزانة بالكتابات بنّية اللون!

قلت لـ«بوبي» الذي كان ما يزال مشغولاً بالرسم على الحائط وسيجارته في فمه:

t.me/qurssan

- يأخذوننا للصلاة بالإجبار، كما كانوا يأخذونكم في سجون البريطانيين، ولكن هنا لا يمكننا أن نحوّل العظة الدينية إلى فسحة للحديث والتنسيق في ما بيننا، كما كنتم تفعلون، هنا تُحسب النأمة علينا! ثم إن عليّ أن أحفظ تفاصيل الصلاة التي كنت أجهلها. الأمر كلّفني بعض الضربات المؤلمة. ألا يمكن للمرء أن يصلّي صلاته الخاصة بحركات جسده الخاصة والمختلفة عن حركات الآخرين؟!

لم يردّ عليّ «بوبي»، بدا لي أن الأمر لا يعنيه، بل لا يساوي وسخة من الوسخات العالقة بقدميه. كان يرسم ويرسم ويرسم...

في اللحظة التي فُتح فيها باب الزنزانة الحديدي إيذاناً بدخول طعام الإفطار، طار «بوبي ساندز» من قربي كسرب حماماتٍ جزعة خائفة، والضوء الخارجي الذي اقتحم الزنزانة بدّد طيفه، فلم أعد أراه! فارقني لأبقى وحدي من جديد. تماماً كما فارقني «تايلر دِردن» يوماً وأنا في نظارة الشرطة هناك في العالم الآخر البعيد.

في ذلك اليوم أخذوا الرجل الستّيني ولم يعد ثانية إلينا.

بعد عشرة أيام اعتقال، ويومين طويلين قضيتهما مع رائحة «بوبي ساندز» وصوته، مخاوفي، أسئلتي وأجوبته، قصص من معنا ومن ليسوا معنا، والخوف، أُطلق سراحنا فجأة دون أن أعرف لماذا وكيف؟!

كان علينا أن نركض بأقصى سرعتنا كي نقطع الحدود التركية السورية، ما يقرب من كيلو مترٍ طويل طويل باتجاه الداخل التركي. هناك يجب علينا أن نختفي في حقول الذرة من عيون الجندرما، كما أكّد المهرّب الجديد الذي بدا أنه لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره، أشقر البشرة، بعيون ملوّنة حادّة ووجهٍ عابس قلق.

آه.. لم يكن إلا المرشد «ألكسندر كاجدانوفسكي»(40) يصرخ فيّ أن ألحقه أينما مشى، أن أتبع خطواته وألا أجتهد في مسيرتي،

t.me/qurssan

فوحده من يعرف الطريق الخطرة باتجاه «المنطقة»، تلك التي يتوق كل بشريّ أن يصل إليها، ولست أنا وحدي، ووحده الذي سيوصلني إلى هناك حيث «حجرة الأمنيات»، تلك التي تتحققّ كل الأمنيات بين جدرانها!

كنت ملوّثاً بالوحول، وثيابي مبلّلة كلّها حتى أن عظامي تبلّلت، لكني أشعر بحرارة هائلة تنطلق من داخلي، وقلبي ينتفض بعنف ورغبة في الخلاص والوصول إلى الإلهام الذي خسرته في حياتي، تلك التي أرميها الآن خلفي. كنت أقول لـ«المرشد»، ولا أعرف ما إن كان يسمعني:

العالم يُحكم بقوانين قاسية تجعله مملّاً بشكلٍ لا يطاق . للأسف فهذه القوانين لا يمكن انتهاكها . الحياة قبلاً كانت أكثر إثارة ، الناس كانوا شباباً، أما اليوم فقد أصبحنا كلنا عجائز ! وأنا ذاهب لأكتشف الحقائق التي لا تنفكّ تتغيّر كلّ ما عثرت عليها.

يجيبني وصوته يهدر في الفضاء، كصوتٍ قادم من الغيب:

«في الحقيقة دعني أقول لك إن الشغف الذي تمتلكه ليس طاقة عاطفية ، هو مجرد انفصال روحك عن العالم الخارجي . أن تسعى لأن تكون أقوى هناك ، بينما يجب عليك أن تكون ضعيفاً كطفل ، لأن الضعف شيء عظيم ، والقوة لا شيء . عندما تبدأ الشجرة بالنمو تكون ليّنة مرنة ، وحين تصبح جافة صلبة تموت . القوة والصلابة هما رفقاء الموت ، أما الليونة والضعف فهي دلالات عذوبة الخلق ، لأن من تصلّب لن ينتصر أبداً».

كان الفجر الضبابي قد بدأ يطفو على المكان، ونحن نحاذي سكة قطارٍ مهملة وسط مكانٍ صامت لا تسكنه روح. نتبع خطا «المرشد» الذي ما انفكّ يلهث وهو يؤكد لنا: «هنا في «المنطقة» لا يمكنك أن تعود أدراجك من حيث أتيت. الطريق القصير خطر، والطريق الملتفّ الطويل أقل خطراً. هنا نظام معقّد مليء بالأفخاخ التي تُخلق فجأة، مليء بالموت. لا ينجح بالمرور من هنا إلا معدومو الأمل، كثير من الناس ماتوا في الطريق أو على

t.me/qurssan

باب حجرة الأمنيات، لا يمرّ من هنا إلا البؤساء، أولئك الذين سيدفعون حياتهم إن لم يحسنوا التصرّف!».

«جمال» يركض بجانبي، ويحثّني على الركض أسرع. أما «المرشد» فكان يركض أمامنا. فجأة بدأ صوت إطلاق نار غزير يقترب منّا، إطلاق مفاجئ كصاعقةٍ حطّمت صمت الحدود. رحت أحسّ بأزيز الرصاص يمرّ بجانب أذني، صوته كذبابة مسعورة متوحشة، طلقات متلاحقة كقدر، وقد تدخل في رأسي في أي ثانية! فجأة لم أعد أشعر بـ«جمال» قربي، سمعت صوت تأوّهاته تبتعد، التفتُّ خلفي وكان جسده في الغباشة يبدو مظلماً وبعيداً ممدّداً على الأرض. أردت أن أعود إليه، صاح «المرشد»: أسرع، اتركه.. أسرع وإلا سيقتلونك!

وتركته، أمسكت بحزام حقيبتي الجلدية وانطلقت أسرع، ورصاص الجندرما يزداد عنفاً واقتراباً، وأنا أركض وأركض وأشعر بأن قلبي يكاد يتوقف! للحظة شعرت بسيخ نار ضرب ساقي اليسرى، ويبدو أن رصاصة مرّت بجانب ساقي وشحفتها، لكني أكملت الركض و«المرشد» يصرخ بي: كل شيء تمام؟! ها.. كل شيء تمام؟!

ثم دخلنا في غابةٍ معتمة وهدأ الرصاص فجأة، حينئذٍ سمعت «ألكسندر كاجدانوفسكي» يقول لي: «خلص الحمد لله.. أصبحنا بأمان!».

في اللحظة تلك انهرت على الأرض، كانت ساقي تنزف لكن لم يكن الجرح عميقاً، أخرجت قميصاً من حقيبتي، وربطت به ساقي، قبل أن أعاود المشي بصعوبة وراء «المرشد»، لاهثاً، مصاباً، متعباً كنت، وقلبي لم تهدأ انتفاضته بعد.

لمَ علينا أن نهرب من سيطرة حربٍ قذرة، من وحشية نظام، إلى سطوة أمراء حرب، إلى سيطرة حفنة من المهرّبين؟! قدر لعين ساخر، كأن الآلهة تسخر منا، تتلاعب بنا كدمى قماشية متهالكة لا حول لها ولا قوة، وتستمتع بآلامنا وخوفنا. لو كانت لهذه الآلهة قلوب رحيمة لما فعلت بنا ما تفعل. وما زال علينا أن نعبدها!

t.me/qurssan

ونتوسّل إليها، ذلّ في الأرض وذلّ في السماء. يا إلهي.. صرخت، وردّدت الأشجار القاتمة حولي صدى صرختي. ولكن من أنادي؟!

- اسكت ولا تُحدث صوتاً، ما زال من الممكن أن يكون هناك جندرما تلحق بنا!

صرخ «المرشد» الذي ما زال يمشي بهمّةٍ أمامي.

في سيارة عسكرية كبيرة ارتمينا، ستة أشخاص لا أعرفهم خُلقوا فجأة حولي، ستة أشخاص وأنا دون «جمال»، ذاك الذي تركناه وحده في طريق هربنا إلى «المنطقة» وفيها. كانوا يهربون معنا دون أن أعي وجودهم! أطفال يبكون، نساء ينشجن، وصراخ «المرشد» طالباً الصمت. إلى العمق التركي انطلقنا، نكاد نصل إلى باب «حجرة الأمنيات»، تلك التي دُفعت آلاف الأرواح ثمناً للوصول إليها، وهناك على بابها، الذي أكاد أصل إليه، كان ثمة صوت يقول لي:

«حين يفكّر المرء في ماضيه يصبح أكثر طيبةً، فكّر بماضيك، فالأماني التي تطلبها ليست هي التي تتحقق هنا، بل إن الأماني التي تتحقق هي الأماني العميقة في داخلك فحسب، ما يتوافق مع طبيعتك، جوهرك الذي لا تعرف عنه شيئاً لكنه موجود في داخلك، ووحده الذي يتحكّم بحياتك.. فكّر بماضيك».

كانت بناية شبه مهجورة تلك التي ساقنا الرجل إليها، بعد أن قضينا ساعاتٍ طويلة في الشاحنة لم أعِ كم كانت! نمت معظم الطريق، كنت أشعر بجسدي منهكاً متكسراً وجرح ساقي يلحّ عليّ بلؤمٍ وحرقة.

ثمّة ثلاثة شبان في الغرفة قبلي، وصلت وارتميت على الفرشة التي كانت ممدودة لشخص ما. لم أعرف كم من الوقت نمت، حين استيقظت قال لي «طارق النعماني»، ببلوزته الصفراء المهترئة ووجهه الطفولي بشعيراته القليلة كوجه مراهق غضّ: الحمد لله! زالت الحمّى وأنت بخير الآن.. الحمد لله على السلامة، الله حماك!

t.me/qurssan

في تلك البناية التي بقينا فيها ما يقرب من خمسة عشر يوماً، تعرّفت جيداً إلى «طارق النعماني»، فالأشياء التي تحتاج في الحياة العادية إلى سنوات للتحقّق، يمكن أن تتجسّد في حياة الهروب بأيام، تقليص غريب للزمن، تكثيف لا بدّ منه، فمن يعرف إلى متى سيتمكن من جعل حياته تستطيل؟! كان يعود كل يوم من جولته الصباحية، ليحكي لي عن تلك الفتاة التي تعجبه. يخرج ليسترق منها نظراتٍ سريعة، وهي تجلس وسط أسرتها في الباحة القريبة. كانت صبيّةً نحيلة بغطاء رأسٍ ملوّن ووجهٍ شاحب. أجبرني أن أسترق النظر من النافذة إليها وهو يخبرني كم أن قلبه امتلأ بها.

- ولكنك لا تعرفها!

- لا يهم يا صديقي، أشعر بأني أعرفها منذ زمن طويل طويل وكأننا تربّينا معاً، ألا تؤمن بعشق الأرواح؟!

لا أفهم كيف يمكن للمرء أن يشعر بأيّ مقدار من العاطفة في ظرف كهذا؟ الأمر غير مفهوم بالنسبة لي. كنت أعود إلى مكاني على الفرشة التي بدأت رائحتها العفنة توقظني في الليل، أعيد مشاهدة المواد التي صوّرتها، كل مقابلاتي مع الناس في سوريا، صوري وأفلامي القصيرة، وأحلم كيف سأصل إلى بلد آمن وأعيد ترتيبها ونشرها. سأغيّر العالم بأفلامي تلك، رغم أني لم أعرف إلى اليوم ما الذي سأفعله بالضبط بها، هل سأمازج بين الوثائقي والدرامي، أم سأنجح في دمجها لتغدو أفلاماً درامية بحتة؟ لا أعرف، المهم أن كمّ العاطفة والألم والحقيقة التي تكتنفها كانت كافية لإقناعي بأنها ستغيّر العالم! رغم أن أي فيلم سيُنجَز عمّا عشته هناك، سيكون أشبه بلعثمة طفل أمام خطيب مفوّه، بتفاحة بلاستيكية، بلوحة مقلّدة بهتت ألوانها، لن نستطيع أن نصنع شيئاً يحاكي احتراق الواقعية هناك!

في ليلةٍ تالية أتى إليّ «طارق» والفرح يتقافز من عينيه، قال لي إنه عرف اسمها: «مي»، وإنهما استطاعا تبادل أطراف الحديث لدقائق بعيداً عن عيون أهلها، هناك وراء سور المبنى المقابل، وقد

t.me/qurssan

اعترفت له بأنها معجبة به أيضاً!

- سنتزوّج حالما نصل إلى أوروبا.

- مجنون أنت...

- لا لست مجنوناً، أنت الذي لا تعرف ما الذي يعنيه الحب!

لم يكن «طارق» يقصد بالتأكيد ما قاله، فهو يعرفني منذ أيام قليلة، لكنه كان صفعة حقيقة على وجهي! صحيح، أنا لم أعرف الحب، ذاك الذي يسمّونه الحب، منذ اللحظة التي لمحت فيها «رشا»، أو ربما لم تكن هي، بثياب الراهبات وأنا أقف على جرف محيسن. يا إلهي! كم تبدو ذكرى بعيدة لرجل آخر من كوكب آخر لا يمتّ إليّ بصلة!

المهرّب الأخير الذي التقيته في مقهى وسط المدينة حدّد لي مسبقاً طريقة الهرب، وأكّد لي: قواربي هي الأفضل على الإطلاق، ليست مثل القوارب الأخرى التي يحشونها بالناس فتنهار بعد عدة أمتار في الماء.. لا، نحن لا ندع أكثر من عشرة أشخاص يصعدون إلى القارب، ونأخذ فقط 3000 دولار على الرأس، ليس مثل غيرنا 4000 و5000 دولار، نحن نخاف الله.. ولكن، اشترِ سترة نجاة أضمن، قد نحتاجها.

- لكني أستطيع السباحة جيداً.

- وإن كان، قد تحتاجها في البحر.. البحر غدّار!

- من أين يمكنني شراؤها؟

- كلّ الأكشاك والمحلات هنا تبيع سُتر النجاة، ستراها معلّقة على الواجهات.. الواجهات هنا برتقالية فحسب.

كان بكاء الأطفال في المكان قد بدأ يهدأ مع الزمن، كأنهم ألِفوا المحيط وتصالحوا معه. صرت أراهم يلعبون في الباحة، يبدون كأنهم واقعين تحت تأثير مخدّر ما! في بداية انتظارنا هنا كان صراخهم متواصلاً طيلة الوقت، لا يكاد يهدأ أحدهم حتى يدخل

t.me/qurssan

الآخر في نوبةٍ من البكاء المستنكر. برد ورطوبة وخنقة أنفاس، كمن يُترك ليموت مختنقاً في صندوق. طيلة مكوثي في الانتظار لم أستطع إلا أن أراهم شخصيات «السلاحف تستطيع الطيران»(41)، يجمعون أصداف البحر القريب، قطع البلاستيك والزجاج، ملابس عتيقة، جذوع أشجار، شظايا غريبة، تماماً كما كان أطفال كردستان على الحدود التركية العراقية يجمعون الألغام الأرضية ويبيعونها، بثمنٍ بخسٍ للغاية، لجنود الأمم المتحدة. لكن أطفالنا هنا لم يتلقّوا مقابل ما يجمعون إلا تأنيب الأمهات وصراخ الرجال، أولئك الذين لم تمرّ ذبابة من أمامهم إلا وقابلوها بجعيرٍ برّيّ غاضب!

كان ثمّة طفلٌ فهلويّ أسميته «ستالايت»، كان يبدو تماماً كقائد الأطفال اللاجئين في المخيّم. فتاة حزينة دائماً، بعينين خضراوين خلابتين، أسميتها «جيران»، تلك التي قدمت مع شقيقها مقطوع الساقين من مدينة «حلبجا» المنكوبة. كانت «جيران» حقيقية إلى الحدّ الذي جعلني يوماً ألحق بها مخافة أن ترمي نفسها من الجرف الصخري، رغم أنه لم يكن هناك جرف صخري قريب! أما ذاك الصغير الذي يجلس دوماً بصمتٍ في حضن أمه فقد كان ابنها! هل يعقل أن تربط الحجارة في قدميه وتتركه يغرق في البركة! هل ثمّة بركة قريبة منّا؟! وإلى اليوم الذي تقرّر سفرنا فيه لم تفارق عيناي «جيران»!

التجارة الرابحة اليوم هي تجارة تهريب البشر، أربح من أي تجارة أخرى، فالكلّ يريد النجاة، والنجاة تعني الوصول إلى شواطئ أوروبا، والوصول إلى برّ الأمان غيرُ ممكن إلا بوساطة أولئك المهرّبين!

في المساء أتانا الأمر بالتحرك، ففي الصباح الباكر سننطلق من شواطئ مدينة «بودروم» القريبة. يُسمح لنا بحقيبة واحدة فقط وسترة النجاة، وأيّ أمتعةٍ أخرى سنلقي بها في البحر. صاح المهرّب الشاب في الساحة.

قمت وجهّزت حقيبتي، وضعت فيها كاميراتي وحزمت الهارد

t.me/qurssan

ديسك بإحكام بكيس من النايلون، ولففته حول خصري بشريطة قماشية أخذتها من القميص الأخير الذي كان بحوزتي. وضعت كذلك علبة الفيلم طوطمي وسترة النجاة الأرجوانية، كان لهما اللون ذاته، وشعرت بأنها إشارة تقول لي إن نجاتي لن تكون إلا عبر علبة الفيلم الأرجوانية، سترة النجاة خاصتي.

قبل أن تشرق الشمس كانت أجسادنا تتراكم في شاحنة لنقل المواشي إلى الشاطئ، ثلاث ساعات ونصف استغرقت الرحلة. الكلّ كان يرتجف وأنا معهم، ما الذي ينتظرنا هناك؟ هل سنصل إلى شواطئ اليونان أم لا؟! هل سيكون البحر رئيفاً بنا، أم سنلقى مصير من سبقونا في رحلات الهروب التي سبقتنا؟!

كانت أخبار كثيرة قد وصلتنا عن مئات ممّن غرقوا في البحر المتوسط، أجسادهم تتكئ الآن في قعره وتنظر إلينا نحن القادمين إلى لجّة المياه. سأقطع اليوم مقبرة البحر المتوسط، وسأشمّ روائح الجثث المنتفخة، وقد أرى أشباحهم ترفرف فوق صفحة الماء، التي أتمنى أن تكون ساكنة هادئة رئيفة بنا وبأرواحنا.

كنّا حوالي مئتي شخصٍ في قاربٍ صغير يتّسع لخمسين في الحدود القصوى. معظم الموجودين لم يرتدوا سترات نجاة، ولم أعرف لمَ؟! وأنا أبقيت سترة النجاة في حقيبتي، فأنا أسبح جيداً في حال غرقنا، وإن احتجتها سأخرجها وأستخدمها. بدا البحر لي، إلى اللحظة، ساكناً مرحّباً بنا. القبطان التركي يصيح بأعلى صوته أن نستغني عن كل حوائجنا إلا ستر النجاة، وثمّة شاب صغير يترجم ما يقوله بالنبرة الصارخة ذاتها! لكني لم أرضَ أن أترك حقيبتي، بقيت متشبثاً بها كأنها قطعة من جسدي، أما وجهتنا فقد كانت شاطئ جزيرة كاسيوس!

بقي البحر رئيفاً بنا فترة لا بأس بها، تماماً كما قال المهرب، ينبغي أن يكون مزاج البحر في هذا الوقت من السنة رائقاً، كي يقبل أن يتركنا، نحن الهاربين إلى ما وراء الشمس، سالمين.

البحر شاسع ممتدّ أزرق بشدّة، وتلتمع حبّات الماس عليه عاكسةً

t.me/qurssan

أشعة الشمس. الكلّ صامت، حتى الأطفال الصغار الذين التصقوا بأهاليهم كانوا صامتين، و«جيران» تحتضن الصغير بين يديها الصغيرتين. صوت موج البحر وهو يطرق بدلعٍ قاربنا الصغير يقطعه همس حديث لا يتوقف. «طارق النعماني» يتحادث مع «مي» على طرف القارب. لم أعرف كيف كان لهما أن ينسيا كل الهول الذي نعيشه، كل القلوب التي تنتفض خوفاً حولهما، كل احتمالات الخطر التي لا تنتهي، وأن يخلقا الآن في اللحظة هذه، بالذات هذه، القدرة على الحديث الدافئ الذي لم يتوقف!

رحت أراقب البحر وأفكّر في أن على شخصٍ ما أن يعمل فيلماً، بل أفلاماً، يكون البحر المتوسط بطلها وليس الهاربون عبره. كم يعيش هذا الكائن الممتدّ بزرقته من تبدّلات؟ كم مشت على سطحه حكايات، وكم نامت في قعره حكايات؟ يخوتٌ جميلة حملت أحباباً، تلصّص البحر على أجسادهم العاشقة. أطفال لعبوا برمله وسبحوا قريباً من شواطئه واستمع إلى كل صيحات الدهشة التي خرجت منهم. وكم تلصّص على ذكريات بشرٍ ناموا باطمئنان بالقرب من قعره، مغمضي الأعين حالمين بحياة بعيدة أجمل!

مرّت بجانبنا سفينة ضخمة لحرس الشواطئ، هتف أحدهم بالإنكليزية من ميكرفون يحمله أن نعود، ثم راحوا يدورون حولنا ويدورون حتى أن الموج أضحى أعلى وأعلى، وصار القارب يتحرك بعنف، كريشة في مهبّ ريحٍ عاتية. بدأت النسوة بالصراخ، واستحالت وجوه الأطفال أكثر شحوباً وعيونهم مفنجرة مترقّبة. «جيران» راحت تبكي بصمت، و«طارق» احتضن «مي». المهرّب يصيح عبر المترجم الشاب ألّا نخاف، ويجيب مكبّر الصوت بإنكليزية مجعلكة أن يتركونا لحالنا فلن نعود. بعد عدة طلقات من مسدس في الهواء، وعدة دورات عنيفة حول قاربنا، تركونا لحالنا، يبدو أنهم ملّوا من مراقبة أولئك المنتحرين أمثالنا في لجّة البحر، وقرّروا ألا يروا بعيونهم مرة بعد أخرى أجساداً مستغيثة والبحر يبتلعها، كما هو حالهم كل يوم. أظنهم قرّروا تركنا لمصيرنا ولنكمل الطريق وحدنا!

t.me/qurssan

في تلك اللحظة بدأ البحر يتحرّك، صارت الموجات تعلو، الناس يلهجون بالدعوات بصوت عالٍ، وبدأ صوت الماء الذي يترقرق على طرف القارب يصبح أشدّ قسوة، لم يعد الطزقُ دلالاً بل نزقاً متصاعداً. فيما كانت سفينة حرس الشواطئ قد ابتعدت كثيراً.

في لحظة غادرة، دفعت موجةٌ عالية قاربنا المثقل، صمّت صرخات الناس أذني، لم أعِ ما جرى، حدث كلّ شيءٍ بسرعة عجيبة، واستغرقتُ زمناً كي أفهم أن الموجة الأخيرة التي أتت قبل ثوانٍ قلبت قاربنا رأساً على عقب.

حين فتحت عيني رأيت نفسي تحت الماء!

سطح البحر فوقي يتلألأ والقارب المقلوب يبدو قاتماً من الأعلى. أصوات بعيدة تناجيني، والشمس بعيدة كذلك!

خرجت إلى السطح وأنا أحاول أن أتشبّث بحقيبتي التي كنت ما أزال أحملها. بدأت أسبح بعيداً عن القارب. كان الناس حولي يغرقون، صراخ، صراخ، زعيق، مناجاة، وأصوات غرغرة غرق، أمهات يزعقن كالمجانين، وأطفال يستغيثون. كان هناك أشخاص يرتدون ستر نجاة، لكنها بدت أقرب إلى خرَقٍ بالية لا تقدّم ولا تؤخر!

للحظةٍ فكّرت أن أعود لأنقذ بعضهم، تردّدت قليلاً، فحقيبتي في يدي ولا يمكنني تركها، فيها كاميرتي وطوطمي الأرجواني. فكّرت أن أُخرج سترة النجاة وأستعين بها لأنقذ البعض. في تلك اللحظة أمسكت بي امرأة بيدها الأخرى طفل رضيع، وهي تناديني: أنقذني أرجوك.. أنقذ طفلي.. وشدّتني إليها حتى كادت تغرقني، حاولت أن أطفو وأقول لها لا تمسكيني، فهكذا سنغرق معاً، حاولت أن أستدير كي أمسكها من الخلف، لكنها لم تستجب، أمسكتني من جديد بيدها، فأنزلت رأسي تحت الماء، وأفلتت الحقيبة من يدي. أحسست بأني أختنق، والمرأة لا تفلتني، كانت عيناها تحملان كل رعب العالم، والصغير بيدها الأخرى يصرخ. حاولت أن أبعدها عني، بدأت أبلع ماء، وصرت أحسّ بأن الغرق آتٍ، لم أجد نفسي إلا وأنا أبعدها عني، كانت تستنجد بي ولكنني

t.me/qurssan

دفعتها بعيداً لتتركني، وتركت لي المسافة التي صارت بيننا حيّزاً للهرب، فحاولتُ السباحة مبتعداً عنها، لكنها أمسكت ببلوزتي، وأمسكت معها الشريط القماشي الذي يحيط بخصري! حاولت العودة للسباحة من جديد، لكنها كانت ما تزال متشبّثة بخصري. في تلك اللحظة، دفعتها بكلتا يديّ فتمزّق شريطي بين يديها، وذهب مع الكيس النايلوني والهارد في الماء، وسمعت صرخاتها الأخيرة مع طفلها. لا أعرف لمَ نظرت إلى الخلف ورأيتها تغرق مع ابنها!

كنت أغوص، أشعر بالانزلاق دون سقوط، أنا «جاك الفرنسي»، الراقص مع الدلافين، أهبط إلى قاع البحر حيث المياه ليست زرقاء كثيراً، والسماء هي فقط للذكرى(42). حاولت أن أسبح هناك بصمت، كأني أبحث عن حقيقة أخرى! حاولت أن أبقى هناك حيث حوريات البحر ينقذن الغرقى، فقط الذين يقرّرون أن يموتوا من أجلهنّ. عندئذٍ فقط، في تلك اللحظة، حين قرّرت أني سأموت، بدأت الحوريات بالظهور، حوريات على هيئة دلافين تحيّيني، تختبر ما إن كان حبي لهنّ حقيقياً، ولمّا كان صافياً، كصفاء الماء حولنا، جعلتني إحداهن أعانقها، عانقت الدلفين ورحت معه إلى الأبد.

حين أفلتتني حبيبتي الدلفين استيقظت!

كنت لسببٍ ما ملفوفاً برداءٍ أحمر، ومجموعة من الأشخاص الذين يرتدون سترأ أرجوانية يحاولون إنعاشي. شعرت بأني على سطحٍ خشبي، وحولي كثير من البشر الملفوفين بأرديةٍ حمراء. بعد أن سعلت عدة سعلات تركني المسعفون إلى غيري، وكنت أراقب الذي يجري حولي كأنني أرى فيلماً، لكن دون أي مشاعر مصاحبة، دون أيّ شيء! أرى فحسب كمراقب خارجي لا شأن له بكل ما يحدث.

حرس الشواطئ اليونانيون منهمكون مشغولون بإنقاذ الناس، وأنا أتذكّر أني قتلت امرأة مع طفلها، ولم أستطع فعل شيء لهما، بل إن حلاوة الروح جعلتني أقرب إلى وحش! فقدت حقيبتي

t.me/qurssan

بكاميرتي وطوطمي الأرجواني، فقدت إنسانيتي وبراءتي وغدوت قاتلاً.. فقدت كل شيء.. كل شيء، ولم أجد نفسي إلا وأنا أنشج وأنشج، أبكي كطفل، شعرت لحظتئذ بأن العالم بشع، ضيّق، قذر، حقير، وأنا وحدي عارٍ من كل شيء، عارٍ من ذاكرتي، من حلمي، من كل من عرفتهم، من حكاياتهم من آلامهم وآمالهم، عارٍ من كل شيء!

لم تكن الشمس قد أشرقت بعد، حين تركت المبنى المخصّص للّاجئين، أولئك الذي قرّر البحر ألّا يبتلعهم هذه المرة. مبنى أشبه بسجون «الجيستابو» في الحرب العالمية الثانية. نزلت باتجاه الغابة القريبة. الظلام دامس وثمة قمر في السماء يضيء بعض الزوايا أمامي. كان حرّاس المبنى يتحادثون في ما بينهم، وكنت أرى ما أمامي مشوّشاً وأتطوّح في مشيتي.

همس أحدهم: «بول شيت».

وهزّ الآخرون رؤوسهم قرفاً مني.

كنت أحسّ بأني سكران، كما اعتقدوني، بشعرٍ طويل مشعّث وهيئة رثّة، رغم أني لم أشرب شيئاً ولم آكل منذ أن وصلت إلى الجحيم هنا. أشعر بجسدي خفيفاً وروحي تكاد لا تحمله جلية واضحة، ولأول مرة أشعر بأطرافها التي ترتطم بجدران جسدي من الداخل.

وصلت إلى أول الغابة الصغيرة. كانت الشجرة الكبيرة تلك تناديني، توجّهت إليها دون أي تردّد واحتضنت جذعها الحنون، ورحت أتسلّقها حتى وصلت إلى أحد أكبر أغصانها. يمكن لذلك الغصن أن يحمل ثقلي، يمكنه أن يساعدني على الخروج من عالم الجنون العاهر الذي أحيا فيه!

أخرجت الشريط الأسود الذي حملته من غرفتي في مبنى اللاجئين، كان في ما مضى شريط الأبجور القديم على ما أظن. دسسته في ملابسي دون أن ينتبه إليّ أحد. كان متيناً بحيث يمكنه حمل ثقلي. لففته حول الغصن جيداً، وشكّلت ربطة يمكنها

t.me/qurssan

أن تدخل في رأسي، وجهّزت مشنقتي/ برزخي للخروج بتأنٍّ وهدوء.

وضعت ربطة الشريط حول عنقي، وهممت بالقفز.

لحظتئذ ضرب شيء وجهي، تلمّست جبيني الرطب فوجدت كتلةً لزجة بلونٍ بنّيٍّ مصفرّ، زَرَقُ طائر كبير كان يصيح فوقي. هل كان طائر الرعد صاحب الهنود الحمر؟! كان يشبهه للغاية، كأن روح الزعيم الهندي الأحمر «تشيف برومدين»(43) بعثت إليّ بذلك الطائر، الهندي الأحمر الضخم كجبل، كشاحنة أشجار عملاقة، وسمعت صوته يصرخ فيّ:

- هل تعتقد الخروج إلى الحرية أمراً سهلاً؟! هل تعتقد أن بإمكانك هكذا ببساطة أن تغادر هذا الجحيم؟! السلطة، العنف، الكره، الظلم، القمع، تلك الأنظمة المتوحشة التي تحكم العالم؟!

لم يكد الزعيم «تشيف» يُنهي صراخه، حتى فوجئت بـ«ماك» يصرخ فيّ من تحت الشجرة وهو يحدجني بنظرة مستنكرة:

« ربّ اه ! يا رفاق ، إنكم لا تفعلون شيئاً سوى الشكوى من أنكم لا تطيقون هذا المكان ، وليست لديكم الشجاعة على الخروج منه ».

للتوّ، سمعت صوتاً خفيفاً خلفي، همسات وآهات، ولمحت، من فوق، جسدين متداخلين وراء الأجمة. استطعت أن أعرف «طارق النعماني» من بلوزته الصفراء المهترئة، فقد كان ما زال يرتديها وقد عرّى قسمه السفلي. ظننته قد غرق في البحر، أم أني لم أنتبه له في غيابي الأخير؟! كان «طارق» يدخل جسد فتاة وهو يحتضنها بكل أطرافه شغفاً محباً ويصيح من المتعة، والفتاة تحتضنه كذلك كمن يتعلّق بجذع شجرة في محيط ثائر. الوله الطاغي الذي يلفّهما يصلني لفحاتٍ من نار، وألسنة عشقٍ تحرقني وأنا على غصن شجرتي. لوهلةٍ، حينما راح يقبّل جيدها، بان وجهها واضحاً أمامي بعينين مغمضتين وشفتين منفرجتين تتأوّهان، كانت «مي»! شعرها أسود طويل تتراشق خصلاته على

t.me/qurssan

العشب وحول وجهها!

لم أستطع أن أشيح بوجهي عنهما، كانت هالة الجمال التي تحيط بجسديهما أقوى من أن تجعلني أتملّص منها. رغم أن «ماك» كان ما يزال تحت الشجرة ويحدّثني، وقد بدا أنه يستعدّ للاستسلام النهائي، وروح الزعيم «تشيف» ذاك الذي يراقب استسلامه تتغلغل في داخلي وتملؤني.

في تلك اللحظة، وأنا ما زلت على شجرتي، بدأت خيوط بعيدة للشمس تشرق، لونها الناري الرقيق يضفي على السماء القاتمة لوناً ليلكياً فاتناً. بدأت أصوات العصافير تتعالى، ورائحة صباحٍ قادم ملأت صدري. كان العاشقان قد أغفيا وهما ما يزالان متداخلين على قطعة قماش ملوّنة، أظنّها كانت غطاء رأس «مي».

كان صوتي ضخماً كصوت الزعيم «تشيف» وأنا أهمس: الحياة تستحقّ العيش، فما زال هناك الكثير من السينما لتجدها!

ليس صوتي فحسب، بل كنت أنا الزعيم، مما جعلني أمسك بالوسادة وأقتل صديقي «ماك» خنقاً بها، صديقي الذي نجحوا في جعله يستسلم وينتمي في النهاية إلى عالمهم، قتلت «ماك» كأنه ذاك الجزء مني الذي استطاعوا قتله، قتلته بيدي كي لا يبقَى حبيس عالم الجنون، ورحت أراقب نفسي وأنا أهرب منه!

فككت الشريط الأسود من عنقي، وجلست أراقب شروق الشمس بهدوء. جاء جدّي «سهيل زوربا» ليجلس بجانبي، وأمسك بيدي متأملاً إيّاي بحنان. أما «أشرف كاسيل» فقد قدِم ليمسك يدي الأخرى بابتسامة، «يوسف» أتى للمرة الأولى وانضم إلينا، كان يملك جناحين كجناحَي أشرف، ويدور حولنا متحمّساً.

في المدى أمامي مئات الأرواح ترقص على سطح البحر، أسمع همسها يتعالى ويتعالى ويقترب. وها أنا ذا سأستخدم قوّتي العظيمة، تلك التي لا يتمتع بها أحد غيري، قوة خيالي الأقصى، كي أحطّم نافذة عالمكم. سأترك الماء يغمر قذارات هذا العالم،

t.me/qurssan

وسأخرج راكضاً باتجاه الضوء. أنا «تشيف» الهندي الأحمر، طائر الرعد ذو الروح الحرة. ما زال الوقت مبكراً للموت، ثمة الكثير من الأفلام بانتظاري لأخرجها إلى الضوء، وما زالت الكثير من الحكايات بانتظاري لأرويها!

هامبورغ 2017- 2018

(1) فيلم «أحلام Dreams» للمخرج الياباني «أكيرا كوروساورا Akira Kurosawa»، إنتاج عام 1990. وهذا الحلم بعنوان: «النفق The Tunnel.

(2) فيلم «التاريخ الرسمي La historia oficial» للمخرج الأرجنتيني «لويس بوينسو Luis Puenzo»، إنتاج عام 1985.

(3) الفيلم الوثائقي الدرامي «ذكريات التخلف Memorias del subdesarrollo» للمخرج الكوبي «توماس غوتيريز آليا Tomás Gutiérrez Alea»، إنتاج عام 1968.

(4) فيلم «المهر الأحدب The Humpbacked Horse» وهو فيلم أنيميشن روسي، إنتاج عام 1976.

(5) فيلم «البحيرة الزرقاء The Blue Lagoon»، فيلم أميركي من إخراج «راندال كليسر Randal Kleiser»، إنتاج عام 1980.

(6) الشخصيتان الرئيسيتان في الفيلم الموسيقي «أماديوس Amadeus»، إخراج المخرج التشيكي «ميلوش فورمان Miloš Forman»، إنتاج عام 1984.

(7) فيلم «الساعات The Hours»، من إخراج «ستيفن دالدري Stephen Daldry»، إنتاج عام 2002.

(8) من فيلم «اسم الوردة The Name of the Rose»، إنتاج فرنسي إيطالي ألماني مشترك، إخراج الفرنسي «جان جاك أنو Jean-Jacques Annaud»، إنتاج عام 1986.

(9) فيلم «الصمت The Silence»، من تأليف وإخراج «إنغمار

t.me/qurssan

بيرغمان Ingmar Bergman»، إنتاج عام 1963.

(10) فيلم «الجميلة والوحش Beauty and the Beast»، إخراج «جاري تروسديل Gary Trousdale» و«كيرك وايز Kirk Wise»، إنتاج عام 1991.

(11) فيلم «ذهب مع الريح Gone with the Wind»، إخراج «فيكتور فليمنغ Victor Fleming»، إنتاج عام 1939.

(12) فيلم «استدارة للوراء UTurn»، فيلم أميركي للمخرج «أوليفر ستون Oliver Stone»، إنتاج عام 1997.

(13) فيلم «زوربا اليوناني Zorba the Greek»، من إخراج «ميخائيل كاكويانيس Michael Cacoyannis»، أنتج في اليونان عام 1964.

(14) من الفيلم الشهير «العرّاب The Godfather»، للمخرج الإيطالي الأصل «فرانسيس فورد كوبولا Francis Ford Coppola»، 1972. وقد أنتج الجزء الأول منه في عام.

(15) فيلم «طعم الكرز Taste of Cherry»، أو بالفارسية: «طعم كيلاس»، فيلم من كتابة وإخراج المخرج الإيراني «عباس كياروستامي Abbas Kiarostami»، إنتاج عام 1997.

(16) من الفيلم الألماني «زواج ماريا براون The Marriage of MariaBraun»، وبالألمانية «Die Ehe der Maria Braun»، من إخراج «راينر فاسبيندر Rainer Werner Fassbinder»، إنتاج عام 1978.

(17) من فيلم «متاهة إله القطعان Pan's Labyrinth»، وهو فيلم إسباني مكسيكي من تأليف وإخراج المخرج المكسيكي «جييرمو ديل تورو Guillermo del Toro»، إنتاج عام 2006.

(18) فيلم «أسامة Osama»، وهو أول فيلم طويل للمخرج الأفغاني «صديق بارماك Siddiq Barmak»، وأول فيلم طويل ينتج في أفغانستان، إنتاج عام 2003.

t.me/qurssan

(19) فيلم «وفاة عامل Workingman's Death»، وثائقي ألماني نمساوي مشترك من إخراج «ميخائيل غلافوغر Michael Glawogger»، إنتاج عام 2005.

(20) فيلم «غريزة أساسية Basic Instinct»، للمخرج الهولندي «بول فيرهوفن Paul Verhoeven»، إنتاج عام 1992.

(21) فيلم «السماء فوق برلين Wings of Desire»، وبالألمانية «Der Himmel über Berlin»، من إخراج «فيم فيندرز Wim Wenders»، إنتاج عام 1987.

(22) فيلم «تكلّم معها Talk to her»، للمخرج الإسباني «بيدرو ألمودوفار Pedro Almodóvar»، إنتاج عام 2002.

(23) الفيلم الأميركي «شبكة Network»، إخراج «سيدني لوميت Sidney Lumet»، إنتاج عام 1976.

(24) فيلم «يوميات دراجة نارية The Motorcycle Diaries»، وهو فيلم برازيلي أميركي بيروفي أرجنتيني للمخرج «والتر ساليس Walter Salles»، عن كتاب يحمل الاسم نفسه لتشي غيفارا، الفيلم إنتاج عام 2004.

(25) فيلم «غريزة أساسية Basic Instinct»، للمخرج الهولندي «بول فيرهوفن Paul Verhoeven»، إنتاج عام 1992.

(26) من فيلم «21 غراماً 21 Grams» وهو فيلم أميركي، من إخراج المخرج المكسيكي «أليخاندرو غونزالس إناريتو Alejandro González Iñárritu»، إنتاج عام 2003.

(27) فيلم «السماء فوق برلين Wings of Desire»، وبالألمانية «Der Himmel über Berlin»، من إخراج «فيم فيندرز Wim Wenders»، إنتاج عام 1987.

(28) فيلم «ادخل الفراغ Enter the Void»، فيلم إنكليزي فرنسي من إخراج «غاسبار نوي Gaspar Noé»، إنتاج عام 2009.

98%
t.me/qurssan

(29) أسماء لمواد مخدّرة.

(30) الشخصية الرئيسية في الفيلم الأميركي الشهير «نادي القتال Fight Club»، أخرجه «دافيد فينشر David Fincher»، إنتاج عام 1999.

(31) من فيلم «منتصف الليل في باريس Midnight in Paris»، من إخراج وكتابة «وودي آلن Woody Allen»، صدر عام 2011 في إسبانيا والولايات المتحدة.

(32) من فيلم «القيامة الآن Apocalypse Now»، من إخراج «فرانسيس فورد كوبولا Francis Ford Coppola»، إنتاج عام 1979.

(33) أيضاً من فيلم «القيامة الآن Apocalypse Now».

(34) من فيلم «بيروت الغربية West Beirut»، وهو فيلم لبناني من إخراج وتأليف المخرج اللبناني «زياد دويري Ziad Doueiri»، إنتاج عام 1998.

(35) بطلة الفيلم الفرنسي الكندي «حرائق Incendies»، وهو من إخراج «دينيس فيلنوف Denis Villeneuve»، إنتاج عام 2010.

(36) من فيلم «Platoon» (السريّة أو الفصيلة)، فيلم أميركي من تأليف وإخراج «أوليفر ستون Oliver Stone»، إنتاج عام 1986.

(37) فيلم «مولود مرتين twice born»، والاسم الأصلي بالإيطالية ومعناه: «أتى إلى العالم». هو فيلم أميركي «Venuto al Mondo» إيطالي مشترك من إخراج الإيطالي «سيرجيو كاستاليتو Sergio Castellitto»، إنتاج عام 2012.

(38) Starry Night سماء مرصّعة بالنجوم، لوحة «فنسنت فان كوخ Vincent Van Gogh» الشهيرة، والتي كتب «دون ماكلين Don McLean» من وحيها قصيدة عام 1971 ولحّنها وغنّاها على الغيتار تحت عنوان: «Starry Starry Night».

t.me/qurssan

(39) الثائر الجمهوري الإيرلندي وبطل الفيلم الإنكليزي «جوع Hunger»، من كتابة وإخراج «ستيف ماكين Steve McQueen»، إنتاج عام 2008.

(40) من فيلم «Stalker» (المرشد أو المتعقّب)، للمخرج الروسي «أندريه تاركوفسكي Andrei Tarkovsky»، إنتاج عام 1979.

(41) فيلم «السلاحف تستطيع الطيران Turtles Can Fly»، فيلم كردي من تأليف وإخراج «باهمان قبادي Bahman Ghobadi»، إنتاج عام 2004.

(42) من الفيلم الفرنسي «الأزرق الكبير The Big Blue»، إخراج «لوك بيسون Luc Besson»، إنتاج عام 1988.

(43) فيلم «طيران فوق عشّ الوقواق One Flew Over the Cuckoo's Nest»، وهو فيلم أميركي للمخرج التشيكي «ميلوش فورمان Miloš Forman»، إنتاج عام 1975.

t.me/qurssan

روزا ياسين حسن

كاتبة سورية وناشطة نسوية. درست الهندسة المعمارية قبل أن تتفرّغ للكتابة. تقيم حالياً في ألمانيا.

تُرجمت بعض رواياتها إلى الفرنسية والألمانية والإيطالية. عضوة منذ عام 2015 في نادي القلم الدولي (Pen Club).

مؤلّفاتها الأدبية:

- أبنوس، رواية، 2004. فازت بجائزة «حنّا مينه» للأدب الشاب.
- نيغاتيف (من ذاكرة المعتقلات السياسيات)، رواية توثيقية، 2007.
- حراس الهواء، رواية، 2009. وصلت إلى القائمة الطويلة للجائزة العالمية للرواية العربية (البوكر)، وحازت الجائزة التقديرية لمؤسسة «لاغارديير» ومعهد العالم العربي في باريس عام 2014.
- بروفا، رواية، 2011.
- الذين مسهم السحر، رواية، 2016.
- باتجاه مكان لا موت فيه، رواية للفتيان، 2017، صدرت بالألمانية والفرنسية في سويسرا.

إصدارات دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

t.me/qurssan